

اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

[١٨]

قنديل أم هاشم



رئيس مجلس الإدارة

سعيد عبده

سلسلة اقرأ

صدر العدد الأول

سنة ١٩٤٣

اسم الكتاب : قنديل أم هاشم

اسم المؤلف : يحيى حقي

رقم الإيداع : ٣٤١١

تدمك : ٠ - ٧٧١٤ - ٠٢ - ٩١٧ - ٩٧٨

مقاس الكتاب ١٢ × ١٦.٥ سم

عدد الصفحات ١٣٦ صفحة

القاهرة . الطبعة السادسة عشرة / ٢٠١٥

١/٢٠١٥/٥٠

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة
كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E mail: maaref@idsc.net.eg

يحيى حقى

قنبريل الهم هاشم

الطبعة السادسة عشرة

٢٠١٥م



اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها،
لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر
الثقافة من حيث هي ثقافة، لا يريدون
إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا،
وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من
الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى
وأخصب من الحياة العقلية التي نعيشها.

طه حسين



أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

« قنديل أم هاشم »

١

كان جدى الشيخ رجب عبد الله إذا قدم القاهرة وهو صبي مع رجال الأسرة ونساءها للتبرك بزيارة أهل البيت ، دفعه أبوه إذا أشرفوا على مدخل مسجد السيدة زينب — وغريزة التقليد تغنى عن الدفع — فيهوى معهم على عتبه الرخامية يرشقها بقبلاته ، وأقدام الداخلين الخارجين تكاد تصدم رأسه . إذا شاهد فعلتهم أحد رجال الدين المتعالمين أشاح بوجهه ناقما على الزمن ، مستعيذاً بالله من البدع والشرك والجهالة . أما أغلبية الشعب فتبسم لسذاجة هؤلاء القرويين ورائحة — الابن والطين والحلبة — تفوح من ثيابهم ، وتفهم ما فى قلوبهم من حرارة الشوق والتبجيل ، لا يجدون وسيلة للتعبير عن عواطفهم إلا ما يفعلون : والأعمال بالنيات . وهاجر جدى — وهو شاب — إلى القاهرة سعياً للرزق ، فلا عجب أن اختار لإقامته أقرب المساكن لجامعة

المحبب . وهكذا استقر بمنزل الأوقاف قديم ، يواجه مiazza المسجد الخلفية ، في الحارة التي كانت تسمى (حارة الميزة) ، « كانت » لأن معول مصلحة التنظيم الهدام أتى عليها فيما أتى عليه من معالم القاهرة . طاش المعول وسلمت للميدان روحه ، إنما يوفق في المحو والإفناء حين تكون ضحاياه من حجارة وطوب ! ثم فتح جدى متجراً للغلال في الميدان أيضاً . وهكذا عاشت الأسرة في ركاب الست وفي حماها : أعياد الست أعيادنا ، ومواسمها مواسمنا ، ومؤذن المسجد ساعتنا .

اتسع المتجر وبورك لجدى فيه — وهذا من كرامات أم هاشم — فما كاد يرى ابنه الأكبر يتم دراسته في الكتاب حتى جذبه إلى تجارته ليستعين به ، وأما ابنه الثاني فقد دخل الأزهر ، واضطرب فيه سنوات وأخفق ، ثم عاد لبلدنا ليكون فقيهاً ومأذوناً . بقي الابن الأصغر — عمى إسماعيل — آخر العنقود ، يهيئه القدر واتساع رزق أبيه لمستقبل أبهى وأعطر . لعله خشى في مبدأ الأمر ، عندما أجبره أبوه على حفظ القرآن ، أن يدفع به إلى الأزهر لأنه يرى صبية الميدان تلاحق الفتية المعممين بهذا الهتاف البذيء :

— شد العمة شد ، تحت العمة قرد

ولكن الشيخ رجب سلمه بقلب مفعم بالآمال إلى المدارس الأميرية ، وعندئذ أعانته تربيته الدينية وأصله القروى ، فسرعان ما امتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلميه ، مع حشمة وكبير صبر . إن حرم التأنيق لم تفته النظافة . وهو فوق ذلك أكثر رجولة وأقوم لساناً وأفصح نطقاً من زملائه (المدعين) أولاد الأفندية المبتلين بالعجمة وعجز البيان . فما لبث أن بذ الأقران ، وتلاؤلات على سميائه نجابة لا تخطئها العين ، فتعلقت به آمال أسرته . أصبح ، وهو لم يزل صبيّاً ، لا ينادى إلا بـ (سى إسماعيل) أو إسماعيل أفندى ، ولا يعامل إلا معاملة الرجال . له أطيّب ما فى الطعام والفاكهة .

إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب ، وهو يتلو أوراده ، إلى همس يكاد يكون ذوب حنان مرتعش ، ومشّت الأم على أطراف أصابعها ، وحتى فاطمة النبوية — بنت عمه ، اليتيمة أباً وأماً — تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها ونسكن أمامه فى جلستها صامتة كأنها أمة وهو سيدها . تعودت أن تسهر معه كأنّ الدرس درسها ، تتطلع إليه بعينها المريضتين المحمرتين الأجفان ،

وأصابعها تعمل في حركة متصلة لا تنقطع في بعض أشغال (التريكو). من ذا الذي يقول لإسماعيل : تنبه إلى هاتين اليدين كيف دببت فيهما خلسة حياة غريبة ، وحساسية يقظة ، ولمس متعرف ؟ ألا تفهم ؟ ألا تظن إلى أن دليل اقتراب عاهة العمى في السليم هو أن تبدأ يده في الإبصار ؟
— قومي نأى يا فاطمة .

— لسه بدري ما جاليش نوم .

بين حين وآخر تحيل دمة مترققة شخصه إلى شبح مبهم . فتمسحها بطرف كمها وتعود إلى مطالعها . الحكمة عندها تتمثل في كلامه إذا نطق .

يا لله ! كيف تحوى الكتب كل هذه الأسرار والألغاز ؟ وكيف يقوى اللسان على الرطانة بلغة الأعاجم ؟ وكلما كبر في نظرها انكششت أمامه وتضاءلت . قد يعلق بصره بصفيرتها فيترثس ويبتسم . هؤلاء الفيتات ! لو يعلمن كم هي فارغة رؤوسهن ! إذا أوى إلى فراشه فعندئذ ، وعندئذ حسب ، تشعر الأسرة أن يومها قد انقضى ، وتبدأ تفكر فيما يلزمه في الغد . كل حياتها وحركاتها وقف على توفير راحتته ، جيل يفنى نفسه لينشأ فرد

واحد من ذريته ، محبة وصلت من قوتها إلى عنفوان الغريزة الحيوانية ، الدجاجة القلقة ذات النظرة للتجسسه الحذرة ترقد على بيضها مشلولة الحركة ذليلة العين ، كأنها راهبة تصلى . . . هل هي هبات من فيض كرم ؟ أم جزية جبار مستبد ، إرادته حديد له في كل عنق طوق ، وفي كل ساق قيد ؟ تعلق هذه الأسرة بولدها ، تعلق مسلوب الحرية والإرادة فأين بربك جماله ؟ جواب هذا السؤال عند قلبي . فما من مرة تمثلت فيها هذه الأيام البعيدة إلا وجدته يخفق بذكراها ، ويبدولى وجه جدى الشيخ رجب وحواليه هالة من وضاء ونور . أما جدتي — الست عديلة ، بسذاجتها وطيبتها ، فمن السخف أن يقال إنها من البشر ، وإلا فكيف إذا تكون الملائكة ! ما أبشع الدنيا وأبغضها لو خلت من مثل تسليمها وإيمانها .

٢

سنة بعد سنة وإسماعيل يفوز بالأولية ، فإذا أعلنت النتيجة دارت أكواب الشرابات على الجيران ، بل ربما شاركهم المارة أيضاً ، وزغردت (ما شاء الله) بأثعة الطعمية والبصارة ، وفاز

الأسطى حسن — الخلاق ودكتور الحى — بحلوانه المعلوم ،
وأطلقت الست عديلة بخورها وقامت بوفاء نذرهما لأم هاشم .
فهذه الأرغفة تعد وتتملأ بالفول النبات وتخرج بها أم محمد تحملها
فى مقطف على رأسها : ما تهل فى الميدان حتى تحتطف الأرغفة ،
ويختفى المقطف ، وتطير ملائكتها ، وترجع خجلة تتعثر فى أذيالها
غاضبة ضاحكة من جشع شحاذى السيدة ، وتصير حادثتها
فكاهة الأسرة بضعة أيام يتندرون بها .

وكذلك نشأ إسماعيل فى حراسة الله ثم أم هاشم . حياته
لا تخرج عن الحى والميدان ، أقصى نزهته أن يخرج إلى المنيل
ليسير بجانب النهر أو يقف على الكوبرى . إذا أقبل المساء
وزالت حدة الشمس وانقلبت الخطوط والانعكاسات إلى الانحناءات
وأوهام ، أفاق الميدان إلى نفسه وتخلص من الزوار والغرباء . إذا
أصخت السمع وكنت نقى الضمير فطنت إلى تنفس خفى عميق
يجوب الميدان ، لعله سيدى العتريس بواب الست — أليس
اسمه من أسماء الخدم ؟ — لعله فى مقصورته ينفذ يديه وثيابه من
عمل النهار ويجلس يتنفس الصعداء . فلو قيض لك أن تسمع
هذا الشهيق والزفير ، فانظر عندئذ إلى القبة . لألا من نور

يطوّف بها ، يضعف ويقوى كومضات مصباح يلعبه الهواء .
 هذا هو قنديل أم هاشم المعلق فوق المقام . هيهات للجدران أن
 تحجب أضواءه . يمتلئ الميدان من جديد شيئاً فشيئاً ، أشباح
 صفر الوجوه ، منهوكة القوى ، ذابلة الأعين ، يلبس كل منهم
 ما قدر عليه ، أو إن شئت فما وقعت عليه يده من شيء فهو لا بسه .
 نداءات الباعة كلها نغم حزين :

— حراتى يا فول

— حَلِي وع النبي صلى

— لوبيه يا فجل لوبيه

— المسواك سنة عن رسول الله

ما هذا الظلم الخفى الذى يشكون منه ؟ وما هذا العبء الذى
 يجثم على الصدور جميعها ؟ ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من
 الرضا والقناعة . ما أسهل ما ينسون ! تتناول أيد كثيرة قروشاً
 وملايم قليلة . ليس هنا قانون ومعيار وسعر ، بل عرف وخاطر
 وفصال ، وزيادة فى الكيل أو طبة فى الميزان . وقد يكون الكيل
 مدلساً والميزان مغشوشاً ، كله بالبركة . صفوف تستند إلى جدار
 الجامع جالسة على الأرض ، وبعضهم يتوسد الرصيف . خليط من

رجال ونساء وأطفال ، لا تدري من أين جاءوا ولا كيف سيختفون . ثمار سقطت من شجرة الحياة فتعفت في كنفها . هنا مدرسة الشحاذين . حامل كيس اللقم يثقل ظهره ينادى :
— لقمة واحدة لله يافاعلين الثواب ، جاعان .

والشابة التي تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية :
— يا لى تكسى ونيه يامسلم ربنا ما يفضح لك ونيه !
صوتها الصارخ يجذب الوجوه للنوافذ ، وعيناها الساحرتان تستهويان المطات فتمطر عليها أكوام من الخرق ورث الثياب . في لحظة واحدة تذوب وتختفى ، فلا تدري أطارت ، أم ابتلعها الأرض فغارت .

وهذا بائع الدقة الأعمى الذى لا يبيعهك إلا إذا بدأته السلام ، وأقرأك وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء .

ينقضى النهار فيودع الطرشجى براميله ، وتترك أقدام الخراط عملها اليومى وأدواتها لتعود بصاحبها إلى الدار . لا يزال الترام هنا وحشاً مفترساً له في كل يوم ضحية غريرة . يتقدم المساء ، ينعشه نسيم ذو دلال . تسمع من القهاوى ضحكات غضة وأخرى غليظة حشاشى . وإذا دلفت من الميدان إلى مدخل شارع

مراسينة ، سمعت ضجيج السكارى فى خماره إنسطاسى التى يلعبها
أهل الحى بفكاهتهم « خماره أنست » ، يخرج منها سكير هائج
يتطوح ويتعرض للمارة .

— ورونى أجمعص فتوة

— جتك لهوه يا بعيد

— سيبوه فى حاله داغلبان

— ربنا يتوب عليه

أشباح الميدان الحزينة المتعبة يحركها الآن نوع من البهجة
والمرح . ليس فى الدنيا هم ، والمستقبل بيد الله . تتقارب الوجوه
بود ، وينسى الجميع شكائته ، ويبذر الرجل آخر نقوده فى
الجوزة أو الكتشينة ، وليكن ما يكون ! تقل أصوات اصطدام
كفف الموازين ، وتختفى عربات اليد ، وتطفأ الشموع داخل
المشبات ، عندئذ تنتهى جولة إسماعيل فى الميدان . هو خير بكل
ركن وشبر وحجر ، لا يفاجئه نداء بائع ، ولا ينبهم عليه مكانه .
تلفه الجوع فيلتف معها كقطرة المطر يلعبها المحيط . صور
متكررة متشابهة اعتادها فلا تجد فى روحه أقل مجاوبة . لا يتطلع
ولا يمل ، لا يعرف الرضا ولا الغضب ، إنه ليس منفصلا عن الجمع

حتى تتبينه عينه . من يقول له إن كل ما يسمعه ولا يظن
له من الأصوات ، وكل ما تقع عليه عينه ولا يراه من الأشباح
لها كلها مقدرة عجيبة على التسلل إلى القلب ، والنفوذ إليه
خفية ، والاستقرار فيه ، والرسوب في أعماقه ، فتصبح في يوم
قوامه . أما الآن فلا تمتاز نظراته بأية حياة . . . نظرة سليمة
كل عملها أن تبصر

٣

اقتربت المراهقة وأخذ جسده يفور ، وكأنه مرغم ، فهو
فريسة ممزقة بين قوى دافعة وأخرى جاذبة . يهرب من الناس
ويكاد يجن لوحدته . بدأ يشعر بلذة غريبة في أن يندس بين
المتددات على المسجد ، ولا سيما يوم الزيارة . في هذا الزحام كان
معنى اللباس عنده أنه فواصل بين الأجساد العارية ، يحس بها
من صدمة هينة أو احتكاك وامن . في وسط هذه الأجساد
كان يشعر بلذة المستحم في تيار جار لا يبالي بنقاء الماء
روائح العرق والعطر لا تكربه بل يتشممها بنخيشوم الكلاب .
لا يخلو يوم الزيارة من بعض المومسات - فسيدي العتريس

مأمور ألا يصد أحداً عن الساحة — يفدن لتقديم شمعة للمقام
أو للوفاء بنذر ، عسى الله أن يتوب عليهن ويمحو ما على الجبين
من مقدر مسطور ، كان يراهن من قبل فلا يفطن إليهن ،
أما الآن فهو ينتبعهن وتعلق نظره بهن وتترى ، واختص
بانتباهته فتاة تأتي كل يوم زيارة ، سمراء جمدة الشعر ، رقيقة
الشفتين . هذه هي نعيمة ، تمتاز عن زميلاتهن بصمتها وقوامها
الأهيف . كلهن يمشى مشية المتخاذل المنحل غير مكترث ، أما
هي فكأنما تسير إلى غرض مالكة كيائها وروحها . ذراعاها
ممدودتان إلى جانبها ، يواجهك باطن كوعها ، ولو دقت النظر
لما وجدت من مومس إلا ذراعين مكسورتين من أثر السقوط ،
وإن كانت الثنية عندها سر الخلاعة !

يتسم إسماعيل عندما يرى الشيخ درديرى — خادم المقام —
وسطهن كالديك بين دجاج . يعرفهن واحدة واحدة ، ويسأل عن
الغائبات . يأخذ من هذه شمعتها ، ويوسع لأخرى طريق صندوق
النذور ، يتبدل رضاه فجأة فيزجرهن ويدفعهن دفعاً إلى الخروج .
تأتى إليه أيضاً نسوة ورجال يسألونه شيئاً من زيت قنديل أم
هاشم لعلاج عيونهم أو عيون أعزائهم . يشفى بالزيت المبارك

من كانت بصيرته وضاءة بالإيمان ، فلا بصر مع فقد البصيرة .
ومن لم يشف فليس لهوان الزيت ، بل لأن أم هاشم لم يسعها
بعد أن تشمله برضاها . لعل عقاب آثامه ، ولعله هو لم يتطهر
بعد من الرجس والنجاسة ، فيصبر وينتظر ويتردد على المقام .
فإن كان الصبر أساس مجاهدة الدنيا ، فإنه أيضاً الوسيلة
الوحيدة للآخرة .

في هذا الزيت مورد رزق متسع للشيخ درديري ، ومع ذلك
لا تظهر عليه آثار النعمة . تجلبابه القدر هو هو ، وعمامته الغبراء
هى هى . وماذا يفعل بنقوده ! هل يكنزها تحت بلاطة؟ يتهمه زملاؤه
أنه يحرقها في الحشيش بدليل سعاله الذي لا ينقطع ، وبدليل
ما في طبعه من ميل (للقفش) والتنكيت . والحقيقة أنه مزواج
لا يمر العام إلا ويبنى بمكر جديدة . عرفه إسماعيل من ترده
على المقام ، واعتاد أن يمر عليه في أغلب الليالي بعد صلاة العشاء
ليتندر بحديثه . ومال الرجل للفتى واختصه بحبانه ، هذا الحنان
هو الذي حمله ذات ليلة على الإفشاء إليه بسر لم يفض به إلى
أحد غيره :

— تعرف ياسى اسماعيل ليلة الحضرة ، يحبى سيدنا الحسين

والإمام الشافعي ، والإمام الأليث ، يحفون بالسيدة فاطمة النوية والسيدة عائشة ، والسيدة سكينة ، في كوكبة من الخيل ، ترفرف عليهم أعلام خضر ، ويفوح من أردانهم المسك والورد ، يأخذون أمكنتهم عن يمين الست وعن يسارها ، وتنعد محمكتهم وينظرون في ظلمات الناس ، لو شأوا لرفعوا المظالم جميعها . ولكن الأوان لم يثن بعد ، فما من مظلوم إلا هو ظالم أيضاً فكيف الاقتصاص له ؟ في تلك الليلة ، هذا القنديل الصغير الذي تراه فوق المقام ، يكاد لا يشع له ضوء ، ينبعث منه عندئذ لآلاء يخطف الأبصار . . . إنني ساعتها لا أطيق أن أرفع عيني إليه . زيته في تلك الليلة فيه سرّ الشفاء . فمن أجل ذلك لا أعطيه إلا لمن أعلم أنه يستحقه من المنكسرين .

كان إسماعيل غائب ذهن ، يفكر في الفتاة السمراء التي تزم شفتيها ، وانتبه إلى الشيخ درديرى وهو يشير بأصبعه إلى القنديل : وسان كالعين المطمئنة رأت ، وأدركت ، واستقرت . يصفو ضوؤه الخافت على المقام كإشعاع وجه وسيم من أم تلقم رضيعها نديها فينام في أحضانها ، ومضات الذبالة خفقات قلبها حناناً ، أو وقفات تسبيحها همساً ، يطفو فوق المقام للحارس مبتعداً تبجيلاً .

أما السلسلة فوهم وتعلّة . . . كل نور يفيد اصطداماً بين ظلام
يجثم وضوء يدافع ، إلّا هذا القنديل فإنه يضيء بغير صراع !
لا شرق هنا ولا غرب ، ما النهار هنا ولا الليل ، لا أمس ولا غد
وانتفض إسماعيل لا يدرى ما هذا الذى مس قلبه !

٤

ووافقت المراهقة سنة البكالوريا ، وخرج إسماعيل من
الامتحان ، وقلبه واجف مغم بالشكوك ، وأعلنت النتيجة فإذا
به يفوز ولكن فى ذيل الناجحين .

لقد كان أمله ورجاء الأسرة كلها أن يدخل مدرسة الطب .
فإذا بها تصده عن أبوابها . واقترب العام الجديد ، ولم يستقر على
قرار . ليس أمامه إلّا أن يدخل مدرسة المعلمين إن شاء ، أو أن
يدرس للبكالوريا من جديد ويضيع سنة من عمره وكلا الأمرين
بغيمض إلى نفسه . لم يكن الشيخ رجب بأقل من مؤهله قلقاً
وحيرة . ولكم توقع بعض معارفه أن يكتفى بتعليم ابنه إلى
الحد الذى بلغه ويوظفه بالبكالوريا ، إن لم يكن للمساعدة ،
فللتخفيف عنه . آه لو علموا كيف عقد الشيخ رجب نيته على أن

يدفع بابنه إلى الصفوف الأولى ! ! يذهب هنا وهناك يسأل عن حلّ ... لا أدري من الذى قال له :

— لماذا لا ترسل ابنك إلى أوربا ؟

بات الشيخ رجب ليلته يتقلب على جنبيه .

علم أن هذا الحل سيكلفه من عشرة إلى خمسة عشر جنياً في الشهر ، غير ما يلزم لابنه في أول الأمر من نفقات الطريق وثياب تقيه برد الشمال ؟ أيفارق ابنه ؟ وهل ترضى أمه ؟ أم سيقف حنانها في سبيل مستقبل إسماعيل ؟ وهل يقوى على دفع هذا المبلغ بانتظام كل شهر ؟ إنه لو فعل لما بقي للأسرة كلها إلا ما تعيش به على الكفاف والشظف . وإلى متى ؟ ست سنوات أو سبعاً ، والزمن قاس يدور دورة عكس . كما سمع أذان العشاء ، سمع أذان الفجر ، ثم أخذته غفوة هتف به خلالها صوت رقيق :

— توكل على الله

استيقظ من النوم وقد عقد عزمه ، وفهمت الأم أن لا مهرب من الفراق فرضيت صامته وإن لم ينقطع بكاؤها . إلى أين ؟ بلاد برّه اكلمة لها رنين وسحر تتسلل ، كروح مبهم لا يطمئن لها إلى المنزل الذى لا تنقطع فيه تلاوة القرآن ، وحيث الشرع هو

الحق والعلم جميعاً . وثوت هذه الروح في ركن صغير من الدار
 وغطت رأسها وتمطت ، ونامت منتصرة قريرة العين . بلاد برّه !
 ينطق بها الأب كأنها إحسان من كافر لامفرّ من قبوله ، لا عن
 ذلة ، بل للتزود بنفس السلاح . أما الأم ، فمنذ الآن تركبها رعدة
 المحيط وتأخذها رجفة البرد . تتصور بلاد برّه في نهاية سلم عال
 ينتهى إلى أرض تغطيها الثلوج ، ويسكنها أقوام لهم حيل الجن
 والأعبيهم . أما فاطمة النبوية فقلبها واجف ، تسمع أن نساء
 أوربا يسرن شبه عاريات ، وكلهن بارعات في الفتنة والإغراء ،
 فإذا سافر إسماعيل فلا تدرى كيف يعود إن عاد .

وجمع الأب كل ما استطاع جمعه من مال ، وباعت الأم حليها ،
 واشترت تذكار السفر والملابس الثقيلة التى تقى من برد أوربا
 واقترب موعد السفر وحلّ الوداع .

واجتمعت الأسرة صامئة حزينة . قلوب خافقة ، وعيون
 دامعة ، وأنشأ الأب يقول لابنه :

— وصيتى إليك أن تعيش في بلاد برّه كما عشت هنا
 جريصاً على دينك وفرائضه ، وإن تساهلت مرّة فلن تدرى
 إلى أين يقودك تساهلك . ونحن يا بنى نريدك أن ترجع إلينا

مفلحاً لتبييض وجوهنا أمام الناس . وأنا رجل قد أوشكت على
الكبر ، وقد وضعت كل آمالنا فيك . وإياك أن تغرك نساء أوربا
فهن لسن لك وأنت لست لهن .

ثم صمت الأب قليلاً وعاد يقول :

واعلم أن أمك وأنا قد اتفقنا على أن تنتظرك فاطمة النبوية
فأنت أحق بها وهي أحق بك . هي بنت عمك وليس لها غيرك ،
وإن شئت قرأنا الفاتحة معاً يومنا هذا ، عسى أن يصحب سفرك
البركة واليمن

لم يسعه إلا القبول . فوضع يده في يد أبيه ، وقرأ معه الفاتحة ،
بينهما أم تبكي ، وفتاة حيرى بين الأسى والفرح .

كان إسماعيل يعلم أن هذه الفاتحة ستأتي في يوم ولكنه لم
يتوقعها في تلك الليلة ، فلقد نشأ مع فاطمة النبوية أخوين ، وقلما
نظر إليهما كما نظر إلى فئاته السمراء .

قرأ الفاتحة وهو شارد اللب ، إرضاء لأبيه ، وقلبه يقول له :
« احفظ عهدك ! » فيجيبه : « لماذا ؟ لماذا ؟ » كل هذه أشياء
غامضة ، لأنه حتى اليوم ما يزال طاهراً عفيفاً ، لم يقترب من
امرأة . وإنه لكاذب - وإسماعيل لا يكذب - إذا أنكر أنه

جوعان إلى فتاته السمرء ، إلى النساء جميعاً ، ولا سيما أخيراً !
إلى نساء أوربا .

٥

وخرج إسماعيل يودع بعض أصدقائه ثم انتهى إلى الميدان ،
وقد اقترب الغروب تتلقف آذانه ما أمكنها من نداءات
الباعة التي ألغها ، وخيل إليه أن في الميدان حركة غير التي عهد ،
كأن القوم قد أصبحوا أسرع مشية . ما لهم لا يلوون على شيء ؟
أفليست الحياة إلا سباقاً ؟ كم ودّ لو وقف واحد من المندفعين
وبادله الحديث . لم يلتفت إليه أحد . في الميدان حركة النمل
تتعارض وتتجاذى وتضرب في كل اتجاه . قادته قدماء إلى المقام
فوجده ساكناً على غير عادته . الشيخ درديرى واقف مطأطأة
الرأس كأنما هو متعب أو تسلط عليه خوف ورهبة . دار إسماعيل
حول المقام حتى إذا جاء للسور الذي يفصل مكان النساء عن
الرجال انتبه إلى شبح واقف وراءه ، هي فتاته السمرء
ألصقت جبينها على السور . سمر إسماعيل في مكانه وسمعها
تقول هامسة :

يا أم هاشم ! يا ستارة على الولايا . لا تغضى عينيك ولا
تشيحي بوجهك . تمد إليك يد مسترحمة فخذها . إن الله طهرك
وصانك وأنزلك الروضة ، وإن قلبك لرؤوف . إذا لم يقصدك
المرضى والمهزومون والمحطمون فمن غيرك يقصدون . إذا نُسينا
فاذكرى أنت ! متى يمحي المقدّر على . أريضك أن جسدك ليس
منى فما أشعر بألم وهو ينهش نهشاً . هاهى روى على عتباتك تتلوى
وتتمرغ مصروعة تريد أن تفيق . منذ غادرني رضا الله وأنا كالنائم
يركبه الكابوس ، يقبض في يد واحدة على الموت والحياة !
رضيت لحكمه وأسلمت نفسي ، ولن أضيع وأنت هنا معنا . أفيطول
الأمد ، أم أن رحمة الله قريب ، نذرت لك يوم يتوب المولى على
أن أزيّن مقامك الطاهر بالشموع ، خمسين شمعة ، يا أم هاشم
يا أخت الحسين !

ووضعت الفتاة شفيتها على سور المقام . ليست هذه القبلة
من تجارتها ، بل من قلبها . ومن ذا الذي يجزم بأن أم هاشم
لم تسع إلى السور قد هيأت شفيتها من ورائه لتبادهلها قبلة بقبلة ؟
هم إسماعيل أن يخرج من المسجد ليلحقها ويكلمها ، فلم
تتحرك قدماه . أراد أن يفضى لها بكل ما في نفسه . إن لحظة

الانتزاع من الأسرة والوطن ومواجهة الغربية والوحدة والمجهول
تضنى أعصابه وتهصر قلبه . لماذا يهتز لمرآها دون سائر النساء ؟
أوامم هو ؟ لا . إن صوتا خفياً يريد أن ينطق في قلبه ويتكلم
ويرشده إلى السر . ولكن هناك ألف غطاء وغطاء تكتم هذا
الصوت وتخنقه . ولعل الفتاة لم تره ولم تشعر به . وهرب إسماعيل
من حيرته إلى الشيخ درديرى ، وحديثه الثرثار ينزل بلسما على
فؤاده . وقفته في صمت المقام ، وتحت ضوء القنديل ، ويده معلقة
بالسور تارة ، ماسحة على وجهه تارة أخرى ، هى آخر ما يذكره
عن رحيله من القاهرة . فكل ما حدث له بعد خروجه من المقام
شمله من أخمص قدميه إلى رأسه كالتيار المندفِع العنيف ، يتأرجح
فيه ملقى القياد ، مقلوب الوضع ، فقد خلاله الزمن ترتيبه ،
والمرئيات اعتدالها ، والأصوات صدقها وفروقها . وداع الأسرة ،
وما أمره ! فى الدار وسط النحيب والبكاء ، والمحطة ، والقطار
ثم الميناء وحركته ، والباخرة المجهولة وصغيرها . إننى أنخيله
صاعدا سلم الباخرة شاباً عليه وقار الشيوخ ، بطيء الحركة ، غريب
النظرة ، أكرش ، ساذجاً ، كل ما فيه ينبىء أنه قروى
مستوحش فى المدينة . أقسم لى عمى إسماعيل فيما بعد أنه كان

يحمل في أمتعته قبةقبا ، فقد سمع الشيخ رجب أن الضوء
في أوربا متعذر لاعتیاد الناس لبس الأحذية في البيوت .
كما وصف لى وهو يبتسم سراويله وطولها وعرضها وتكتها
الحلاوى . كان معه أيضاً سلة ملأى بالكعك و (المنين)
من عمل أمه وفاطمة النبوية .
وسافرت الباخرة .

٦

ومرّت سبع سنوات ، وعادت الباخرة .
من هذا الشاب الأنيق السمهرى القامة ، المرفوع الرأس ،
المتألق الوجه ، الذى يهبط سلم الباخرة قفزا ؟ هو والله إسماعيل
بعينه . أستغفر الله ! هو الدكتور إسماعيل ، المتخصص في طب
العيون ، والذى شهدت له جامعات إنجلترا بالتفوق النادر ،
والبراعة الفذة ، كان أستاذه يمزح معه ويقول له :
— أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمست
فيك يا مستر إسماعيل . إن بلادك في حاجة إليك ، فهى
بلد العميان .

رأى فيه دراية كأنها ماهمة ، وصفاء هو سليل نضج أجيال
طويلة ، ورشاقة أصابع هي وريثة الأيدي التي نحتت من الحجر
الصلد دمي تكاد تحيا .

أقبل يا إسماعيل فإنا إليك مشتاقون . لم ترك منذ سبع سنوات
مرت كأنها دهور . كانت رسائلك المتوالية ، ثم المترامية ،
لا تنفع في إرواء غلتنا . أقبل إلينا قدوم العافية والغيث . وخذ
مكانك في الأسرة فستراها كالآلة وقفت بل صدت لأن محركها
قد انتزع منها . آه ! كم بذلت هذه الأسرة لك . فهل تدري ؟
لم ينم إسماعيل ليلة الوصول إلا غراراً . قفز إلى ظهر الباخرة
مع الفجر يريد ألا يفوته أول ما يبدو من شاطئ الإسكندرية .
لا يرى شيئاً على الأفق ، ولكن خياشيمه تنشم في النسيم
رائحة لم يألها من قبل . أول من لقيه من وطنه مخلوق الكون
كله وطنه . طائر أبيض ، منفرد يحوم حول السفينة ، طليق
متعال ، نظيف ، وحيد . لماذا تعتمد البواخر كل هذا التلکؤ
عند الوصول ، وما كان أسرعها عند الفراق ؟ إنها تهادى
بدلال العودة ، فالحال للركاب وما يشعرون . كتم إسماعيل عن
أهله موعد الباخرة حتى لا يكلف أباه الشيخ مشقة السفر

للاسكندرية . فى عزمه أن يبرق إليهم بموعد وصول قطاره
 للقاهرة . هذا هو الفئار المتمنطق ، وهذا هو الشاطئ الأصفر
 يكاد يكون فى مستوى الماء . أنت يا مصر راحة ممدودة إلى
 البحر لا تفخر إلا بانبساطها ، ليس أمامك حواجز من شعاب
 خائنة ، ولا على شاطئك جبال تصدّ . أنت دار كل ما فيها يوحى
 بالأمان . . . ها هو أول قارب يظهر ، فيه شيخ قد وخط الشيب
 لحيته ، مقوس الظهر ، أقمى كالقرد فى مقدم قاربه يصطاد . جلبابه
 الأزرق ، أو الذى كان أزرق ، ممزق مرقع . وقعت نظرة إسماعيل
 على سيدة مصرية وقفت بجواره ، فرآها مطالة على الصياد ، مغرورة
 عيناها بالدموع وسمعها تتمتم :

— مصر ! مصر !

كيف ينتبه لها الصياد وهو لم ينتبه للباخرة كلها . مثلها كثيرات
 داخلات خارجات تكاد تصدم قاربه ، ولكن هيهات لها أن
 تصدم عاله المقفل ، عالم يجرى على وتيرة واحدة متكررة يوماً
 بعد يوم . هم إسماعيل بأن ينادى هذا الشيخ ويلقى عليه السلام ،
 أو يلوح له بمنديل . كيف تسقط المقاييس وينهزم المنطق
 فى مثل تلك اللحظات التى تتأجج فيها العواطف ، وتصفو القلوب !

ورن جرس إيداناً بموت الباخرة ، فأصبحت جثتها فريسة لجيش
من النمل البشرى يهاجمها . جنود وضباط ، وإخواننا المحتلون
ولو أنهم أخلط مطر بشون ، وحمالون وصيارفة وزوّار : ثم اندلق
الزحام والتدافع ، وتعالّت النداءات ، وكثر العناق والتقبيل ،
وإسماعيل وسط التيار ، غير مغمور ، يلتقط بنهم كل ما يصل
إليه ، وعلى شفّتيه ابتسامة حلوة مطمئنة ، له أذن فارزة واعية ،
ونظرة حيّة يقظة تريد أن ترى كل شيء ، وتفهم كل شيء . إذا
دققت النظر إليه وجدت تكورات وجهه قد زالت وشدّ شداقه
في أخذودين . كانت شفّته مرتختين ، قلما تنطبقان ، أما الآن
فقد ضمهما عزم ووثوق . يجتاز الجمر . وفي العربة يستمع لوقع عجالاتها
بين الأسفلت والبلاط ، فيذكره تنافر النغم وتنلوبه بيوم السفر .
كم يبدو له هذا اليوم متردياً في هوة من ماض بعيد . بعيد
كالحلم كيف تقوى ذكرى هذا اليوم على البقاء بعد
سبع سنوات قضّاها في إنجلترا قلبت حياته رأساً على عقب .
كان عفّاً فعوى ، صاحباً فسكر ، راقص الفتيات وفسق .
هذا الهبوط يكافئه صعود لا يقل عنه جدّة وطرافة ، تعلم كيف
يتذوق جمال الطبيعة ، ويتمتع بغروب الشمس — كأن لم يكن في

وطنه غروب لا يقل جمالاً — ويلتذّ بلسعة برد الشمال .
 إن لم يكن له في هذه الفترة سوى (مارى) زميلته في الدراسة
 لكنى بها في نسيان ماضيه . لقد أخذ هذا الفتى الشرق الأسمر
 بلبها فأثرته واحتضنته . عندما وهبته نفسها ، كانت هى التى
 فضت براءته العذراء . أخرجته من الوحى والحنول إلى النشاط
 والوثوق ، فتحت له آفاقاً يجهلها من الجمال : فى الفن ، فى الموسيقى ،
 فى الطبيعة ، بل فى الروح الانسانية أيضاً .
 قال لها يوماً :

— سأستريح عندما أضع لحياتى برنامجاً أسير عليه .
 فضحكت وأجابت :

— يا عزيزى إسماعيل . الحياة ليست برنامجاً ثابتاً ، بل
 مجادلة متجددة .

يقول لها : « تعالى نجلس » فتقول له : « قم نسر » . يكلمها
 عن الزواج ، فتكلمه عن الحب . يتحدثها عن المستقبل فتحدثه
 عن حاضر اللحظة . كان من قبل يبحث دائماً خارج نفسه عن
 شىء يتمسك به ويستند إليه : دينه وعبادته ، وتريقته وأصولها ،
 هى منه مشجب يعلق عليه معطفه الثمين . أما هى فكانت تقول

له : « إن من يلجأ إلى المشجب ، يظلُّ طول عمره أسيراً بجانبه يحرس معطفه . يجب أن يكون مشجبك في نفسك » إن أخشى ما تخشاه هي : القيود ، وأخشى ما يخشاه هو : الحرية . كانت هبتها له في مبدأ الأمر محلَّ حيرته ، فكانت حيرته محلَّ سخريتها . كان يتجافى الناس ويقدر احتمالات ودهم ، ويهتم كيف يكون حكمهم عليه ، وإذا لقي من تريحه الجمالة لا يجد بأساً في مجاملته ، وقلبه غير مشارك . التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منه ظافراً أو خاسراً . أما هي فتهم بالناس جميعاً ، ولا تهتم بهم جميعاً . التعارف عندها لقاء ، والود متروك للمستقبل ، ومع تساوى ودها للناس جميعاً ، كانت بتارة في إقصاء الضعيف ، والسخيف ، والمتعالم ، والردل ، والحزين ، والمنافق ، فلما تخلصت من هذه الأوشاب أصبحت لا ينجذب إليها إلا من تطمئن لصحبتهم .

رأته يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه ، ويخص بعطفه من يلحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والعقول — وما أكثرهم في أوربا ، يجلس صامتاً ينصت لشكواهم . وكان أكبر كرم منه أن يمشى منطقهم منطقة المريض . لحظته (مارى)

وحلقة المرضى والمهزومين تطبق عليه يتشبثون به ، كل يطلبه لنفسه ، فأقدمت وأيقظته بعنف :

— أنت لست المسيح بن مريم ! « من طلب أخلاق الملائكة غلبته أخلاق البهائم ! » و « الإحسان أن تبدأ بنفسك » . هؤلاء الناس غرقى يبحثون عن يد تمد إليهم ، فإذا وجدوها أغرقوها معهم ! إن هذه العواطف الشرقية مردولة مكروهة ، لأنها غير عملية وغير منتجة . وإذا جردت من النفع لم يبق إلا إتصافها بالضعف والهوان . إنما هذه العواطف قوتها في الكتمان لا في البوح !

كانت روحه تتأوه وتتلوى تحت ضربات معولها ، كان يشعر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حية يتغذى منها إذ توصله بمن حوله . واستيقظ في يوم فإذا روحه خراب ، لم يبق فيها حجر على حجر . بداله الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير ، والنفس البشرية لا تجد قوتها ومن ثم سعادتها إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها ، أما الاندماج فضعف ونقمة .

لم تقو أعصابه على تحمل هذا التيه الذي وجد نفسه غريقاً وحيداً في خلائه ، فمضى وانقطع عن الدراسة ، وافترسه نوع من

القلق والحيرة ، بل بدت في نظرته أحياناً لحات من الخوف والذعر .

وكانت (مارى) هى التى أنقذته . أخذته في رحلة إلى الريف بإسكتلندة ، يجولان بالنهار مشياً أو على الدراجة بين الحقول ، أو يصطادان السمك ، وبالليل تذايقه من متعة الحب أشكالا وألوانا . من حسن حظّه أنه استطاع أن يجتاز هذه المحنة التى يتردى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب فى أوربا ، وخلص منها بنفس جديدة مستقرة ، ثابتة واثقة . إن اطرحت الاعتقاد فى الدين ، فإنها استبدلت إيماناً أشد وأقوى بالعلم ، لا يفكر فى جمال الجنة ونعيمها ، بل فى بهاء الطبيعة وأسرارها . ولعلّ أكبر دليل على شفائه أنه بدأ يتخلص من سيطرة (مارى) عليه . أصبح لا يجلس بين يديها جلسة المريد أمام القطب ، بل جلسة الزميل إلى زميله . لم يدهش ، ولم يتألم كثيراً ، عند ما رآها تبتعد عنه وتنصرف إلى زميل من جنسها ولونها . إنها ككل فنان يملّ عمله حين يتم . شفى إسماعيل ففقد كل سحره ، أصبح كغيره ممن تعرفهم . فلتجرب إذاً صديقها الجديد على أن إسماعيل لم يقو على مغادرة إنجلترا دون أن يسعى إلى لقائها

لآخر مرة . دعاها فلم ترفض ، وجاءته . ولم يسأل نفسه أعلى علم من صديقها الجديد أم على غفلة منه ؟ ووهبت له نفسها مرة أخرى ، فهذه العلاقة ليست عندها بذات بال ولا خطر . كانت ضمتها له نوعاً من المصافحة وسلام الوداع .

وهتفت به وهي تنصرف على دراجتها :

— آمل أن أراك في مصر يوماً من الأيام . ومن يدرى ؟
فالى اللقاء إذاً ، ولا أقول وداعاً .

نساء العصر الحديث اكتم ذا يواجهن الاحتمالات بقلوب ثابتة ،
شجرة الحياة أمامهن مثقلة بالثمر منوعته . لهن شهية مفتوحة ،
فلم التأسى والبكاء على ثمرة والشجرة مفعمة ؟

٧

والظاهرة العجيبة التي لا أستطيع تفسيرها أن إسماعيل أفاق
من حبه (لمارى) فوجد نفسه فريسة حب جديد . لأن القلب
لا يعيش خالياً ؟ أم أن (مارى) هى التي نهبت غافلاً فى قلبه
فاستيقظ وانتعش ؟ كان إسماعيل لا يشعر بمصر إلا شعوراً مبهماً ،
هو كذرة الرمل اندمجت فى الرمال واندست بينها ، فلا تميز منها ،

ولو أنها مع ذلك منفصلة على كل ذرة أخرى . أما الآن فقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة في سلسلة طويلة تشده وتربطه رباطاً إلى وطنه . في ذهنه مصر عروس الغابة التي لمستها ساحرة خبيثة بعصاها فنامت ، عليها الحلّى و (دواق) ليلة الدخلة . لارعى الله عيناً لم ترجأها ولا أنفأ لا يشم عطرها ! متى تستيقظ ؟ متى ؟ وكلما قوى حبه لمصر زاد ضجره من المصريين . ولكنهم أهله وعشيرته والذنب ليس ذنبهم . هم ضحية الجهل والفقر والمرض والظلم الطويل المزمّن . إنه حدّق في الموت مراراً ، وجس الجذوم ، واقترب منه من فم المحموم . ترى هل ينكص الآن عن لمس هذه الكتلة البشرية التي لحمه من لحمها ودمه من دمها ؟ قد عاهد نفسه في حبه لمصر أن لا يرى منكراً إلاّ دفعه . علمته (ماري) كيف يستقل بنفسه ، وهيئات لهم بعد ذلك أن يجرعوه خرافاتهم وأوهامهم وعاداتهم . ليس عبثاً أن عاش في أوربا وصلى معها للعلم ومنطقه . علم أن سيكون بينه وبين من يحتك بهم نضال طويل ، ولكن شبابه هوّن عليه القتال ومتاعبه ، بل كان يتشوّق إلى المعركة الأولى ، وسرح ذهنه فإذا هو كاتب في الصحف ، أو خطيب في أحد المجتمعات يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته .

وتحرك القطار بإسماعيل ولم يرسل برقيته . لا يدري لماذا ضعف عن لقاءهم بالحطة وسط الضجيج والضوضاء وعلى أعين الناس ، وربكة المتاع . إنه يود أن يلقي أعزاه في دارهم ، وعلى نجوة من الغرباء . ولم يقدر وقع المفاجأة على أبيه وأمه العجوز . ذكرهما فوجف قلبه . هل يستطيع أن يؤدي لهما بعض ما هو مدين به ؟ إنه قادم مزود بنفس السلاح الذي أراده له أبوه ، وسيشق لنفسه بهذا السلاح طريقه إلى أول الصفوف ، وسيعرض عن خدمة الحكومة ويفتح عيادة في أرقى أحياء القاهرة ، وسيدهش القاهريين أولاً ثم المصريين جميعاً بما أتقنه من فن واكتسبه من خبرة . فإذا تدفق عليه المال أعفى أباه الشيخ من العمل ، واشترى له أرضاً في بلدهم ليعيش مستريحاً . ثم وجم إسماعيل ، لقد تذكر أنه لم يأت معه من أوروبا بهدية لأسرته ، وسرّى عنه إذ قال لنفسه :

— وماذا في أوروبا كلها يصلح لأبي وأمي ؟

وفاطمة النبوية ؟ ذكرها تثير في نفسه بعض الاضطراب ، لم يزل مرتبطاً بوعدده ، وقد عاد حراً ، فلا عذر له إذا اعتذر . هذه مسألة معقدة فلنتركها للمستقبل .

وأطلّ من النافذة فرأى أمامه ريفاً يجري كأنما اكتسحته
عاصفة من الرمل فهو مهدّم معمر متخرب . الباعة على المحطات
في ثياب ممزقة تلهث كالحيوان المطارد وتتصبب عرقاً .

ولما سارت العربية من المحطة ، ودخلت شارع الخليج الضيق
الذى لا يتسع لمرور الترام ، كان أبشع ما يتصوره أهون مما رآه :
قذارة وذباب ، وفقر وخراب ، فانقبضت نفسه ، وركبه الوجوم
والأسى ، وزاد لهيب الثورة في قرارة نفسه ، وزاد التحفز .

ووقف أمام البيت ، وتناول مطرقة ، وتركها تسقط ،
فاختلطت دقات قلبه . سمع صوتاً رقيقاً ينادى بلهجة
نساء القاهرة :

— مين ؟

— أنا إسماعيل ! افتحى يا فاطمة !

٨

يا إسماعيل . ما أقساك ! وما أجمل الشباب !
كادت أمه يغمى عليها ، وانعقد لسانها وهى تضمه وتقبل
وجهه ويديه ، تشهق وتبكي . يا لله ! كم شاخت وتهذلت وضعف

صوتها وبصرها ! إن الغائب في وهم ، يتوقع أن يعود لأحبابه فيجدهم كما تركهم منذ سنوات . صوت يهمس في قلبه :
 — ليست لها من الشخصية نصيب ! ليست إلا كتلة من طيبة سلبية .

وجاءه أبوه تفيض على وجهه ابتسامة هادئة . اشتعل شيبه وإن لم تنحن قامته ، في عينيه نظرة مشوبة من إعياء وصبر ، من راحة ضمير وشعور بالحمل الثقيل . سيعلم إسماعيل فيما بعد أن الأزمة كوته بنارها فانتكست أموره ، ومع ذلك لم يتأخر في يوم ما عن موعد إيداع النقود بالبنك لابنه . لم يذكر لإسماعيل ما يعانیه أو يدعوه إلى الاقتصاد أو يستعجله للعودة . يلهو إسماعيل في أسكتلندة مع رفيقته يا كل البفتيك ، وأبوه قعيد داره ، عشاؤه طعمية أو فجل .

لإسماعيل نظرة من طرف عينيه تطوف في الدار ، فإذا هي أضيق وأشد ظلمة مما كان يذكر . أما يزال ضوءهم من مصباح البترول ؟ قطع الأنثاء بالية متناثرة تبدو — رغم مر السنين وطول الصحبة — كأنها مهاجرة في دار غربة . ولماذا هم على البلاط ؟ وأين البساط ؟

هذه أم محمد ترتبك كماداتها بين الأطباق والحلل ، وهى
تزغرد ، فيزجرها ويقول لها :

— بس بلاش خوته ياوليه اعقلى .

ولكن أين فاطمة النبوية ؟ أقبلت فإذا أمامه فتاة فى شرخ
الصبا ، ضفیرتاها وأساورها الزجاجية الرخيصة ، وحركاتها وكل
ما فيها وما عليها يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف . هل هذه
هى الفتاة التى سيتزوجها ؟ علم منذ اللحظة أنه سيخون وعده
وينكث عهده . وما لها معصوبة العينين ؟ فهى ترفع ذقنها
لتستطيع أن ترى وجهه . لم يدعها الرمد منذ سافر ، وساء حالها
يوماً بعد يوم .

وأعد العشاء وجلسوا ، ولعلهم جلسوا من أجله حول مائدة
لهم من الخشب الأبيض . لم يأكل أحد ، لم يأكلوا هم من
حدة الفرح ، ولم يأكل هو من صدمة اليقظة . اعترف لى
إسماعيل فيما بعد بأنه حتى فى اللحظة التى كان يجب أن تشغله
سعادة العودة إلى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد ،
لم يملك نفسه عن التساؤل : كيف يستطيع أن يعيش بينهم ؟
وكيف سيجد راحته فى هذه الدار ؟

وأعد الفراش ، وأبى الشيخ رجب إلا الانصراف إلى غرفته ليترك ابنه يستريح من عناء السفر . وهذه أمه تجذب نفسها جذباً وتهم بتركه ، ولكنها تشير إلى فاطمة وتقول :

— تعالى يا فاطمة قبل أن تنامى أقطر لك في عينيك .

ورأى إسماعيل أمه وفي يدها زجاجة صغيرة ، وترقد فاطمة على الأرض وتضع رأسها على ركبة الأم ، فتسكب من الزجاجة في عينيها سائلاً تتأوه منه فاطمة وتتألم .

سألها إسماعيل :

— ما هذا يا أمي ؟

— هذا زيت قنديل أم هاشم . تعودت أن أقطر لها منه كل مساء .

لقد جاءنا به صديقك الشيخ درديري إنه يذكرك ويتشوق إليك . هل تذكره ؟ أم تراك نسيتته ؟

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع . أليس من العجيب أنه وهو طيب عيون ، يشاهد في أول ليلة من عودته ، بأية وسيلة تداوى بعض العيون الرمء في وطنه ؟ . . .

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فأوقفها ، وحل رباطها وفحص عينيها ،

فوجد رمداً قد أتلف الجفنين وأضر بالمقلة ، فلو وجد العلاج المهدىء المسكن لتماثلت للشفاء ، ولكنها تسوء بالزيت الحار الكاوى .

فصرخ فى أمه بصوت يكاد يمزق حلقه :

— حرام عليك الأذية . حرام عليك ، أنت مؤمنة تصلين ، فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام ؟

وصمتت أمه وانعقد لسانها ، تحاول أن تتعم ولا تبين .
ورأى إسماعيل شبح أبيه على الباب ، فى جلباب أبيض قصير ، وعلى رأسه طاقية تحتها وجه مربد . هل يتوقع قلبه الحنون مكروهاً ؟ ماذا ؟ لعل فى تصرفات إسماعيل وحركاته ونظراته ما أيقظ فى نفسه منذ اللحظة الأولى بعض الريبة . ما هذا الصراخ ؟ ماذا حدث ؟

ونظقت أمه أخيراً تستعيز بالله وتقول له :

— اسم الله عليك يا إسماعيل يا ابنى . ربنا يكملك بعقلك . هذا غير الدوا والأجزاء . هذا ليس إلا من بركة أم هاشم .
وإسماعيل كثر هائج لوحته بغلالة حمراء .

— أهى دى أم هاشم بتاعتكم هى اللى ح تجيب للبنات

العمى . سترون كيف أداويها فتنال على يدي أنا الشفاء الذي لم تجده عند الست أم هاشم .

— يا ابني ده ناس كثير بيتباركوا بزيت قنديل أم العواجز .
جر بوه وربنا شفاهم عليه . إحنا طول عمرنا جاعلين تكالنا على الله وعلى أم هاشم . ده سرها باتع .

— أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت .

هبط على الدار صمت مقبض كصمت القبور . في هذا البيت تعيش قراءة القرآن والأوراد ، وصدى الأذان ، كأنها جميعاً استيقظت وانتهت ، ثم أطرقت وانطفأت ، وحل محلها ظلام ورهبة . . . لا عيش لها مع هذه الروح الغريبة التي جاءت لهم من وراء البحار .

وسمع صوت أبيه كأنما يصل إليه من مكان سحيق :

— ماذا تقول ؟ هل هذا كل ما تعلمته في بلاد بره ؟ كل ما كسبناه منك أن تعود إلينا كافرين ؟

كل ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدل على أن المرض العصبي القديم قد عاوده فجأة ، وانفجر بشدة من جديد . فقد وعيه وشعر بحلقه يجف ، وبصدره يشتعل ، وبرأسه يموج في عالم غير هذا

العالم . شب على قدميه واقفاً . لا شك أن في نظريته ما يخيئ ،
فقد تضاءلت الأم أمامه وابتعد الأب عن طريقه . هجم إسماعيل
على أمه يحاول أن ينتزع منها الزجاجة فتشبثت بها لحظة ، ثم
تركها له ، فأخذها من يدها بشدة وعنف ، وبحركة سريعة
طوح بها من النافذة .

وكان صوت تحطمها في الطريق دوى القنبلة الأولى في
المعركة .

ووقف إسماعيل حائراً لحظة ، له نظرة تجوب ما حوله وتنتقل
من وجه أمه وقاطمة إلى وجه أبيه . وجد إشفاقاً وعطفاً ، ولم
يجد تسامحاً وفهماً . ربما استشف في نظرتهم بعض الرعب فتزايد
هياجاً ، وانطلق إلى الباب ، وفي طريقه وجد عصا أبيه فأخذها
ثم هرب من الدار جرياً ، لن ينكص عن أن يطعن الجهل
والخرافة في الصميم طعنة نجلاء — ولو فقد روحه .

٩

أشرف على الميدان فإذا به يموج كدأبه بخلق غفير ، ضربت
عليهم المسكنة ، وثقلت بأقدامهم قيود الذل . ليست هذه كائنات

حية تعيش في عصر تحرك فيه الجماد . هذه الجوع آثار خاوية
محطمة كأعقاب الأعمدة الخربة ليس لها ما تفعله إلا أن تعثر
بها أقدام السائر . ما هذا الصخب الحيواني ؟ وما هذا الأكل
الوضيع الذي تلتهمه الأفواه ؟ يتطلع إلى الوجوه فلا يرى إلا
آثار استغراق في النوم كأنهم جميعاً صرعى أفيون . لم ينطق له
وجه واحد بمعنى إنساني . هؤلاء المصريون : جنس سمج ثرثار ،
أقرع أرمد ، عارحاف ، بوله دم ، وبرازه ديدان ، يتلقى الصفعة
على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه . ومصر ؟
قطعة (مبرطشة) من الطين أسنت في الصحراء ، تطن عليها
أسراب من الذباب والبعوض ، ويفوص فيها إلى قوائمه قطع
من جاموس نحيل .. يزدحم الميدان ببائعي اللب والفول ، وحب
العزير ، ونبوت الغفير ، والهريسة ، والبسيصة ، والسمبوسكة ،
بلملم الواحدة . في جنباته مقام كثيرة على الرصيف ، بجوار
الجدران ، قوامها موقد وإبريق وجوزة . أجساد لم تعرف
الماء منذ سنين ، الصابون عندها والعنقاء سواء . تمر أمامه فتاة
مزججة الحواجب ، مكحلة العينين ، شدت ملامتها لتبرز عجيزتها
وطرف ثوبها ، وتحجبت ببرقع يكشف عن وجهها . وما معنى

هذه القصة التي تضعها على أنفها ؟ أف ! ما أبشع رياء هذا المنظر وما أقبحه ! سرعان ما بدأ الناس يتحركون بها كأنهم كلاب لم يروا في حياتهم أنثى ! هنا جهود يقتل كل تقدم ، وعدم لا معنى فيه للزمن ، وخیالات المخدر ، وأحلام النائم والشمس طالعة

لو استطاع إسماعيل لأمسك بذراع كل واحد منهم وهزّه هزّة عنيفة وهو يقول :

— استيقظ . استيقظ من سباتك وأفق ، وافتح عينيك .
ما هذا الجدل في غير طائل ؟ والشقشة والمهاترة في سفاسف ؟
تعيشون في الخرافات ، وتؤمنون بالأوثان ، وتحجون للقبور ،
وتلوزون بأموات .

وعثرت قدمه بطفل ملقى على الرصيف ، والتف حوله جموع من الشحاذين يعرضون عليه عاهات يرتزقون منها رزقاً حلالاً كأنها من نعم الله عليهم ، أو من وصناعات .

وشعر إسماعيل بأن هذه الجموع أشلاء ميتة تطبق على صدره ، وتكتم أنفاسه ، وتبهظ أعصابه . يصطدم به بعض المارة كأنهم

عمى يتخبطون . هذا الرضا عجز ، وهذه الطيبة بلاهة ، وهذا الصبر جبن ، وهذا المرح انحلال .

انفلت إسماعيل من الزحام وجرى إلى الجامع ودخله ، واجتاز الصحن إلى الحرم . المقام يتنفس بدل الهواء أبخرة ثقيلة من عطور البرابرة . هذا هو القنديل قد علق التراب بزجاجه واسودّت سلسلته من (هبابه) . تفوح منه رائحة احتراق خائفة . أكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص ضوء . هذا الشعاع إعلان قائم للخرافة والجهل . يحوم في سقف المقام خفاش اقشعر له بدنه . حول المقام أناس كالخشب المسندة ، وقفوا مشلولين متشبّثين بالأسوار ، فيهم رجل يستجدي صاحبة المقام شيئاً لم يفهمه إسماعيل ، وإنما وعى أنه يستعديها على خصم له ، ويسألها أن تخرب بيته وتيتم أطفاله . والتفت إسماعيل إلى ركن في المقام فوجد الشيخ درديرى يناول رجلاً معصوب الرأس بمنديل نسائي زجاجة صغيرة في حرص وتستر ، كأنما هي بعض المهربات . لم يملك إسماعيل نفسه . . . فقد وعيه ، وشعر بطنين أجراس عديدة ، وزاغ بصره ، ثم شب ، وأهوى بعصاه على القنديل فخطمه ، وتناثر زجاجه ، وهو يصرخ :

— أنا أنا أنا

. ثم لم يستطع أن يتم جلته . (من يدري ماذا كان سيقول ؟)
هجمت عليه الجموع ، وتهدمت فوقه ، فخر على الأرض مغشى عليه .
ضربوه ، وداسوه بالأقدام ، وجرح رأسه ، وسال الدم على وجهه ،
ومزقت ثيابه .

علمنا بعد ذلك أنه أوشك على الموت تحت الأقدام ، لولا أن
تعرف عليه الشيخ درديرى فأنقذه واستخلصه من غضب الناس
وعنفهم وهو يقول :

— اتركوه ! إننى أعرفه . هذا هو سى اسماعيل ابن الشيخ
رجب . من حقتنا . اتركوه . ألا ترون أنه (مريوح) .
واحتمله إلى الدار ووضعوه على الفراش ، واجتمعت الأسرة فى
ليلة الفرح بعودته تبكى صوابه المفقود .

لئن الله اليوم الذى سافرت فيه يا إسماعيل ؟ ليتك ظلت
بيننا ولم تفسدك أوربا فتفقد صوابك ، وتهين أهلك ووطنك
ودينك .

صكت الأم وجهها ، وتأوه الأب وكنم ألمه وغيظه ، وسكبت
فاطمة دموعها مدراراً .

١٠

ومرت أيام كثيرة وإسماعيل لا يغادر الفراش . ركبه العناد فأدار وجهه للجدار لا يكلم أحداً ولا يطلب شيئاً ، ولما أفاق قليلاً بدأ يفكر : هل يعود إلى أوربا ليعيش وسط أناس يفهمون الحياة ؟ إن الجامعة عرضت عليه منصب مساعد أستاذ فرفضه بغباء ، ولعلمهم يقبلونه الآن إذا طلب . ولم لا يتزوج هناك ويبنى لنفسه أسرة تحت سماء جديدة بعيداً عن هذا الوطن المنكود ؟ لماذا ترك إنجلترا بريفا الجميل ، وأمسياتها الهنية ، وقسوة شتائها الجبار ، وجاء لبلديفرون فيه من بعض الرذاذ كأنما تحيق بهم نكبة أو يدهمهم طوفان ؟ أما يدرون أن هناك وجوهاً صامته ونظرة ثابتة ، تسير تحت المطر والثلوج تقاوم الأعاصير ؟ وما فائدة الجهاد في بلد كمصر ومع شعب كالمصريين ، عاشوا في النل قروناً طويلة فتذاوقوه واستعذبوه ؟

ثم أخذته غفوة ، واختلط عليه الأمر ، إنه كالطير قد وقع في فخ ، وأدخلوه القفص ، فهل له من مخرج ؟ يشعر بجسمه وقد شد إلى هذه الدار التي لا يطيقها ، وربط إلى هذا الميدان

الذى يكرهه ، فمهما حاول فلن يستطيع فككا .

واستيقظ ذات صباح اسماعيل وهو يشعر بنشاط عجيب . في مثل هذه الأحوال يقفز الشخص من النقيض إلى النقيض فجأة وبلا سبب ظاهر . وخرج من الدار مبكراً وعاد يحمل حقيبة مملوءة بالزجاجات والأربطة والمراد ، وبدأ علاجه لفاطمة كما يقتضيه طبه وعلمه . لقد عالج في أوربا أكثر من مائة حالة مثلها ، فلم يخنه التوفيق في واحدة . فلماذا لا ينجح مع فاطمة أيضاً ؟ وسلمت الفتاة إليه نفسها مطمئنة ، لايهمها مرضها بقدر مايهمها أن تكون بين يديه موضع عنايته ورفقه ، وتجنبه أبوه وأمه ولم يعودا يعارضانه في شيء إشفاقاً على صحته .

في الصباح تجلس فاطمة بين يديه وقبل النوم . ومرت يوم وثان وثالث ورابع ، وأسبوع وآخر ، وعيون فاطمة على حالها ، ثم إذا بها تسوء فجأة وتلهب ، ويختلط سوادها بالبياض . ضاعف إسماعيل عنايته ، وكرر أنواع الأدوية ، وقلب جفونها ومس ، وقطر ومرهم ، وكشط ومسح ، فما أجدى طبه نفعاً . إنه ليس بالجاهل ، يرى أمامه فاطمة اقتربت من العمى ولا ينفذها في علمه حيلة .

أخذها إلى زملائه في كلية الطب ، وعرضها على الأساتذة ،
فوافقوه على طريقته في العلاج ، ونصحوه بالاستمرار .
فقاوم ، وثابر وأخيراً استيقظت فاطمة على صباح
وهي تفتح عينيها ولا ترى لقد انطفأ آخر بصيص
تتعزى به .

١١

هرب إسماعيل من الدار ، لم يستطع الإقامة فيها وفاطمة
أمامه، وعماها دليل على عماه . عيون أبيه وأمه تلومانه . ما الذي
حدث ؟ لماذا أخفق ؟ إنه لا يفهم شيئاً . أين يذهب ؟ لم يبدأ
بعد عملاً ، ولا هو بقادر ولا راغب في الالتجاء للحكومة لتعيينه
في إحدى القرى النائية . باع كتبه وبعض الأدوات التي
أحضرها معه من أوروبا ، وسكن في غرفة ضيقة في بنسيون مدام
إفتاليا ، وهي سيدة يونانية بدينة أخذت تستغله منذ أول وقوعه
في يدها ، حتى لتكاد تضع في كشف الحساب تحية الصباح ،
أو تستقضيه خطوتها إذا قامت وفتحت له الباب . حاسبته مرة
على قطعة سكر استزادها في إفطاره . يحس بابتسامتها أصابع

تفتش جيوبه . أهذاها بعض الفطائر والسجائر فأخذتها نهمة متلهفة ، وفي الصباح سألته أن لا يطيل السهر في غرفته حرصاً على الكهرباء . لاشك أن الأفرنج في مصر من طينة أخرى غير التي رآها في أوربا . كان يحبس نفسه في غرفته فطرده هذه العاملة إلى الشوارع يجوبها من الصباح إلى منتصف الليل . وفي كل ليلة يجد نفسه — ولا يدري كيف — وسط ميدان السيدة يجوب حول داره ، يتطلع إلى نوافذها ، يريد أن يرى وجه فاطمة أو يسمع صوتها ، فاطمة ضحيته ، ومع ذلك لم تثر لم تشك لم تلمه . أسلمت إليه نفسها عن رضى فأوردها التلف ، فما قالت لئلا يجها تريث وهكذا يظل واقفاً في الميدان ، ساعات طويلة ، سارح الذهن ، شارد اللب ، تتسرب إلى أذنه النداءات القديمة . هي هي لم تتغير . ماذا ؟ لعل كل والد أورث ابنه مهنته وصوته وموضعه في الميدان ! مساكين ! كل من خدمهم منّا عليهم واستعجلهم الجزاء أضعافاً مضاعفة . لم يخدمهم أحد لله أو حباً فيهم ، ومع ذلك جروا وراء كل من توهوا فيه الإخلاص وتشبثوا بأذياله ، ورفضوا أن يروا ضعفه أو خيانتة . هذا شعب شاخ فارتد إلى طفولته ، لو وجد من

يقوده لقفز إلى الرجولة من جديد في خطوة واحدة ، فالطريق عنده معهود والمجد قديم ، والذكريات باقية .

تساءل إسماعيل : هل في أوروبا كلها ميدان كالسيدة زينب ؟ هناك أبنية ضخمة جميلة ، وفن راق ، وأناس وحيدون فرادى ، وقاتل بالأظافر والأنياب ، وطعن من الخلف ، واستغلال بكل الوسائل . مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وانهاء النهار . يروحون بها عن أنفسهم كما يروحون عنها بالسينما والتياترو .

ولكن . لا . لا . لو أسلم نفسه لهذا المنطق لأنكر عقله وعلمه . من يستطيع أن ينكر حضارة أوروبا وتقدمها ، وذل الشرق وجهله ومرضه وفقره ؟ لقد حكم التاريخ ولا مرد لحكمه ، ولا سبيل إلى أن ننكر أننا شجرة أينعت وأثمرت زمناً ثم ذوت وهيئات هيئات أن تدب فيها الحياة من جديد .

يفر إسماعيل من الميدان إلى غرفته ويقضى ليلته يفكر كيف يهرب لأوروبا من جديد ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى موقفه لمعهود بميدان السيدة في مساء الليلة التالية .

١٢

وجاء رمضان فما خطر له أن يصوم . ابتداءً يطيل وقفته في الميدان ويتدبر: في الجوِّ، في الهواء ، في الخلوقات ، في الجمادات كلها شيء جديد لم يكن فيها من قبل . كأن الوجود خلع ثوبه القديم واكتسب جديداً . علا الكون جو هدنة بعد قتال عنيف . يحدث إسماعيل نفسه : لماذا خاب ؟ لقد عاد من أوربا بحزمة كبيرة محشوة بالعلم ، عند ما يتطلع فيها الآن يجدها فارغة ، ليس لديها على سؤاله جواب . هي أمامه خرساء ضئيلة ، ومع خفتها فقد رآها ثقلت في يده فجأة .

ودار بعينه في الميدان . وتريثت نظرتة على الجموع فاحتملتها . وابتداءً يبتسم لبعض النكات والضحكات التي تصل إلى سمعه ، فتذكره هي والنداءات التي يسمعهما بأيام صباه ما يظن أن هناك شعباً كالمصريين حافظ على طابعه وميزته ، رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين . (ابن البلد) يمر أمامه كأنه خارج من صفحات (الجبرتي) . اطمأنت نفس اسماعيل وهو يشعر أن تحت أقدامه أرضاً صلبة . ليس أمامه جموع من أشخاص فرادى ،

بل شعب يربطه رباط واحد : هو نوع من الإيمان ،
ثمرة مصاحبة الزمان ، والنضج الطويل على ناره . وعندئذ
بدأت تنطق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل .
هنا وصول فيه طمأنينة وسكينة ، والسلاح مغمد . وهناك نشاط
في قلق وحيرة ، وجلاد لا يزال على أشده ، والسلاح مسنون .
ولم المقارنة ؟ إن الحب لا يقيس ولا يقارن ، وإذا دخلت المقارنة
من الباب ولى الحب من النافذة .

وحلت ليلة القدر فانتبه لها إسماعيل ، ففي قلبه
لذكراهما حنان غريب . ربي على إجلالها والإيمان بفضائلها ،
ومنزلتها بين الليالي . لا يشعر في ليلة أخرى — حتى ولا ليالي
العيد — بمثل ما يشعر به فيها من خشوع وقنوت لله . هي في
ذهنه غرة بيضاء وسط سواد الليالي . كم من مرة رفع فيها بصره
إلى السماء فبهره من النجوم جمال لا يراها تنطق به بقية العام .
وغاب لحظة في أفكاره ، فإذا به ينتبه على صوت شهيق
وزفير عميق يجوبان الميدان . هذا هو سيدى العتريس ولا ريب .
رفع بصره . القبة في غمرة من ضوء يتأرجح يطوف بها . انتفض
إسماعيل من رأسه إلى أخمص قدميه . أين أنت أيها النور الذى

غبت عني دهرآ ؟ مرحباً بك ! لقد زالت الغشاوة التي كانت
 ترين على قلبي وعيني . وفهمت الآن ما كان خافياً على . لا علم
 بلا إيمان . إنها لم تكن تؤمن بي ، إنما إيمانها ببركتك أنت
 وكرمك ومثلك . ببركتك أنت يا أم هاشم .

ودخل إسماعيل المقام مطأطئ الرأس فأبصره يرقص عليه
 ضوء خمسين شمعة زينت جوانبه ، والشيخ درديري يتناولها
 واحدة واحدة من فتاة طويلة القامة سمراء اللون ، جعدة الشعر .
 هي نعيمة ، قد زال انطباق شفيتها وبدت لها سنن ، وإن
 تكلمت فصف من أسنان بيض كالؤلؤ ، تكفي النظرة إليها أن
 تنسى وجود كل قبيح .

لقد صبرت وآمنت ، فتاب الله عليها ، وجاءت توفي بنذرها
 بعد سبع سنوات . لم تقنط ، ولم تثر ، ولم تفقد الأمل في
 كرم الله .

أما هو الشاب المتعلم ، الذكي المثقف ، فقد تكبر وثار ،
 وتهجم وهجم ، وتعالى فسقط .

ورفع إسماعيل بصره فإذا القنديل في مكانه يضئ كالعين

المطمئنة التي رأت ، وأدركت ، واستقرت . خيل إليه أن
القنديل ، وهو يضيء ، يومئ إليه ويتسم .
وجاءه الشيخ درديري يسأله عن صحته وأخباره ، فيميل عليه
إسماعيل يقول :

— هذه ليلة مباركة يا شيخ درديري ، أعطني شيئاً من
زيت القنديل .
— والله انت بنختك كويس . . . دى ليلة القدر ؟ وليلة
الحضرة كان .

وخرج إسماعيل من الجامع ويده الزجاجية وهو يقول في
نفسه للميدان وأهله :

— تعالوا جميعاً إلى ! فيكم من آذاني ، ومن كذب على ،
ومن غشني ، ولكني رغم هذا لا يزال في قلبي مكان لقدارتكم
وجهلكم وانحطاطكم ، فأنتم مني وأنا منكم . أنا ابن هذا الحى ،
أنا ابن هذا الميدان . لقد جار عليكم الزمان ، وكلما جار واستبد ،
كان إعزازي لكم أقوى وأشد .
ودخل الدار ونادى فاطمة :

— تعالى يا فاطمة ! لانيأسى من الشفاء . لقد جئت بك بركة

أم هاشم ستجلى عنك الداء ، وتزيح الأذى ، وترد إليك بصرك
فإذا هو جديد . . .

وشد ضفيريته واستمر يقول :

وفوق ذلك سأعلمك كيف تأكلين وتشربين ، وكيف
تجلسين وتلبسين ، سأجعلك من بنى آدم .

وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان . لم ييأس
عند ما وجد الداء متشبثاً قديماً ، يجادله بعناد ولا يتزحزح .
ثابر واستمر ، ولاحت بارقة الأمل ، ففاطمة تقدم للشفاء على
يديه يوماً بعد يوم وإذا بها تكسب في آخر العلاج ما تأخرته في
مبدئه ، فهي تقفز أدواره الأخيرة قفزاً .

ولما رآها ذات يوم أمامه سليمة في عافية ، فتش في ذهنه
وقلبه عن الدهشة التي كان يخشاها ، فلم يجدها .

١٣

وافتح إسماعيل لنفسه عيادة في حي البغالة بجوار
التلال ، في منزل يصلح لكل شيء إلا لاستقبال مرضى
العيون . الزيارة بقرش واحد لا يزيد . ليس من زبائنه متأنقون

ومتأنقات ، بل كلهم فقراء ، حفاة وحافيات ، والغريب أن شهرته استقرت في القرى المجاورة للقاهرة دون القاهرة ذاتها ، فاكتملت داره بالفلاحين والفلاحات ، يجيئون بهدايا من البيض والعسل والبط والدجاج .

كم من عملية شاقة نجحت على يديه ، بوسائل لورآها طيب أوربالشعق عجباً . استمسك من علمه بروحه وأساسه ، وترك التدجيل والمبالغة في الآلات والوسائل . اعتمد على الله ثم على علمه ويديه فبارك الله له في علمه وفي يديه . ما ابتغى الثروة ولا بناء العمارات وشراء الأطنان ، وإنما قصد أن ينال مرضاه الفقراء شفاءهم على يديه .

وتزوج إسماعيل من فاطمة وأنسلها خمسة بنين وست بنات .



وكان في آخر أيامه ضخم الجثة ، أكرش ، أכולا نهما ، كثير الضحك والمزاح والمرح ، ملابسه مهمة ، تتبعثر على أكمامه وبنطلونه آثار رماد سجاثره التي لا ينفك يشعل جديدة من منتهية . وأصيب بالربو فاحتقن وجهه ، وتندى العرق على جبينه ،

وانقلب تنفسه إلى نوع من الموسيقى ، وأصبح من يشاهده لا يدرى أهو متعب أم مستريح . فلما احتبست ضحكاته في حلقه ، اجتمعت في عينيه (فليس هناك عيون أقوى على التعبير من عيون المصدورين) ، يكاد يقفز منها إليك شيطان لعوب ، كلها حب وفهم ، فيها خبث وطيبة ، وتسامح وإعزاز ، وكأنها تقول لك قبل كل شيء :

— ليس كل مما في الوجود أنا وأنت ، هناك جمال وأمرار ومنتعة وبهاء . السعيد من أحسها ، فعليك بها عليك . . . إلى الآن يذكره أهل حى السيدة بالجميل والخير ، ثم يسألون الله له المغفرة . مم ؟ لم يفض إلى أحد بشيء ، وذلك من فرط إعزازهم له . غير أننى فهمت من اللحظات والابتسامات أن عمى ظل طول عمره يحب النساء ، كأن حبه لهن مظهر من تقانيه وحبه للناس جميعاً .

رحمه الله

السلحفاة تطير . . .

هذه قصة خيالية ، ولكنها ليست خرافة ، فوقائهما محتملة الحدوث ، وبطلها ليس مستحيلا وجوده ، ومن يدري ؟ ربما كان حياً يرزق ! والواقع أنني أعرفه ، بل تربطني به صلة أقوى وأشهى من القرابة والنسب ، صلة الجوار . فنحن أولاد حارة واحدة ، أسارع وأقول إنها — والحمد لله — حارة مسدودة ، فمثل هذه الحارات وحدها هي التي تعمل في تصفية الود بين الجيران ما تعمله الزجاجة في تعتيق الشراب . على رأس الحارة تقوم دار داود أفندي — بطل هذه القصة الخيالية — : واجهة طويلة ، بها الباب ، على الحارة ، وواجهة أخرى على الشارع ، مع أنها شبر ونصف شبر عرضاً ، إلا أنها تدل على أن صاحب الدار أوجه وأغنى من بقية السكان الذين لا يستطيعون رؤية الزفات والمواكب و« الخناقات » إلا بثني رقابهم ، وبخطر الوقوع في يد رجال الإسعاف .

وداود أفندى لو خرج من بين سطور هذه القصة الخيالية وعاش، لكان الوحيد بيننا الذى يسكن فى ملكه. والمعروف أن له أيضاً استحقاقاً فى وقف عن أم أمه أو جد جده ، فلماذا يتشبث بهذه الدار القديمة فى هذه الحارة المسدودة ؟ لو كنت مكانه لانتقلت إلى الحامية أو المنيرة. كلنا نجلبه لغناه و(نستعبطه) لنزوله الى مستوانا، ولعلى كنت من بين سكان الحارة أكثرهم ارتباطاً به رغم اختلافنا فى السن والمهنة .

كنت إذا عدت لدارى من المطبعة فى صفرة الشمس، ومررت عليه وهو جالس أمام باب داره ، دعانى لمجالسته وتشبث بى كأنه يجد لذة فى أن تصافح يده الناعمة النظيفة يداً صلبة خشنة كيدي. فى هذه الجلسات تأتى لى أن أنصت أو أحثه على القول، حتى وقفت على تاريخ حياته ، وليس فيها - مع الأسف - شىء من الأسرار التى تشرئب لها الأذن . هو من أولاد الذوات الذين ورثوا عن واثنين عن واثنين، فكان من المعقول أن يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلاً بعد جيل ، فأصبحوا كالحيوان البرمائى لا هو هنا ولا هو هناك . ولذلك فهم أسرع انقراضاً . هو بالنسبة إلينا غنى ولكنه فى الواقع فقير . ومع ذلك فهو يعتز بأصل لا يغنيه فيستريح

ولا يسلكه في الفقراء فيريح . . . وماذا يفعل وهو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ابن عز؟ في كرمه وجهله ، في طبيته مع معارفه وازوراره بل نفوره من الغرباء . تجافيه عن العالم الخارجى فيه تمسك بالماضى كأنه يعيش من وراء سد الصين . له قصص شائقة عن تحوت المحولى وعثمان . بين الحين والآخر يخرج علبة بيكاربونات الصودا ويسف منها قليلاً دواء لمعدته . هو متأنق لا يأكل إلا أخف الطعام في أغلب أيامه . وككل أولاد الذوات الذين تربوا في آثار عز سالف ، وجدت فيه مع الكبرياء والأنفة كثيراً من أخلاق الصبيان وقلة دراية بالحياة في معتركاتها .

أذكر هذا لأننى كنت جالساً معه في إحدى الأمسيات غرأيت صبي شيخ الحارة قادماً علينا مجدداً في خطواته ساهم النظرة كأنه في غيبوبة . هو زنجى وأغلب الظن أنه ولد في بوزة وكان مهده قرعة . وجه نحس بشفته الغليظة الباذنجانية ، وعيونه المختبئة تحت جفونه المرتخية تبدو كالخرزة الزرقاء لا تنفترق عن حيون التيس في جمودها ومكرها ، حتى إذا وقف أمامنا أخرج من جيب سترته ورقة صغيرة متسخة وسلمها لداود افندى .
مهذه ؟ دارت نظرتى خلسة في لف حول كفه ، ووقعت على

الورقة ، فوجدت مكتوباً عليها (١٩ أحوال) .

— حضرتك مطلوب في القسم يا كر .

— ليه ؟

لا جواب .

— عند مين ؟

لا جواب .

تحرك الأسود وسار ، فعزرائيل لايتريث ليبكى مع أهالى الميت . ثم ما كاد يسير خطوتين حتى أفاق لنفسه وعاد إلينا من جديد ، فأصول اللطمة أن تكون من قلمين ، ومال بوجهه — وجه الوابور — على أذن داود افندى :

— عمى يرجوك ويرجوك ألا تتأخر .

ثم كان فص ملح وذاب .

داود افندى قلق ، حائر . كل حين وآخر يسألنى : يا ترى لماذا ؟ لم أذهب للقسم فى حياتى ، وأشد ما أكره أن أتخطى بابه وأواجه هذا الصنف المسمى رجال البوليس . أعوذ بالله ! من الذى اشتكاني ؟ هل أتيت جرماً دون أن أعلم ؟

كنت غير ملق بالى إلى همه التافه ، ولكنى انتهت وعجبت

من أن كثيراً من الناس الطيبين لا يسمعون في بعض الأحيان من الوهم والشك في براءة ماضيهم . الآن في قلوبهم نازعاً خفياً إلى الإجرام ، فتختلط في أذهانهم الرغبة بالحقيقة ، أم هم يستيقظون فجأة إلى أنه ليس هناك دليل واحد على أن الحياة غير مزدوجة ؟!

قد يكون الشخص الواحد مع الناس يذهب ويحجى ، ولكنه لا يستطيع أن يكون واثقاً كل الوثوق من أن ليس له في الوقت نفسه حياة أخرى مهمة كالأحلام ، لا يشعر بها كما لا يشعر بما حوله من ركبه الدوار : حياة تتصل طى ضباب كثيف بحياة أشد غموضاً لكائنات أخرى

كنت أود أن أهدي مخاوفه وأطمئنه ، لكنني خشيت أن يعود سريعاً إلى الحديث الممل العادي الذي شبت منه ليلة بعد ليلة . وخفت أكثر أن ينقطع الحديث سريعاً ، لأن الكلمة الطيبة قلما تقبل المط . وأحسست برغبة في البقاء على رأس الحارة ، وقد طابت الجلسة وشمطنا الغروب بسحره . في كل مرة أنتبه للحظة سقطة قرن الشمس ، أشعر أنها شهقة دوامة تحتضر كان انفراجها النهار وانطباقها الليل . فأخذت — علم الله

لا لغرض إلا إطالة الجلسة الظرفية — أستهيره وأحرك مخاوفه .
ونقلت الحديث من البوليس وفظاظته إلى البلطجية وأفاعيلهم .
رئيسى فى المطبعة له شهر فى الحبس ولا يدرى لماذا . وآخراتهم
بلطجى بالتزوير ليفرض عليه ضريبة — وهؤلاء البلطجية حيل
لا يصل إلى قرارها الشيطان إن وصل . وربما سبقوا بالشكوى
ليستولوا على أجر التصالح . . . ومن يدرى ! ربما وجدوا فيل
ياداود أفندى بطيبتك خير صيد فمدوا حولك حبالهم . ثم إنى
لست مطمئناً إلى (١٩ أحوال) هذه ! ووجه صبى شيخ الحار ينم
عن شر كبير ، ولا بد أنه عالم بشيء لم يرد الإفضاء به إلينا . ولم
أقم إلا بعد أن (استوى) داود أفندى ، وبعد أن استحلقتنى أن أمر
عليه فى الصباح لنذهب إلى القسم معاً



لا أدرى هل تأخرت فى النوم عفواً أم أحببت أن أستريح
من سهرة الأمس استيقظت وقدارتفعت الشمس ، فخرجت من الحارة
مهرولاً كأننى هارب . ومع ذلك تشبث نظرى لحظة وأنا أجرى
بباب بيت داود أفندى ، وخيل لى أن مطرقة — وهى من نحاس

على شكل يد مضمومة ، تنبسط وتشير بسبابتها إلى . . إلا أن
للعانها ذكرنى سور مقام أم هاشم ، وتعلق المهزومين والمرضى
والمنكوبين بقضبانته . وانقبض قلبي خوفاً على صديقي داود أفندى .
فمن نحس هذا الزمان ولؤمه أن يهان رجل طيب مسالم مثله ويكون
مثله عند دخول القسم كمثل حيوان أليف آكل عشب يجد
نفسه فجأة فى غابة تعج بكل ذى ظفر وناب . مع ذلك — فهذا
شأن الحياة واكتساب الرزق بعرق الجبين وقشف اليدين —
نسيت ونسيت أوهامه وأنا ممنح مفقود وسط آلات المطبعة وهى
تضج وتضطك فى حركات مفاجئة منتظمة كأنها نفقات مقعد
محموم . . انتهت إلى ذكراه وأنا أمام داره فى عودتى للحارة .
رأيت فى انتظارى جالساً على كرسية متلفعاً بعباءته . عندما
قاربتة حمدت الله أننى وجدته فى حدة وغضب أنسياء خلفى
لوعدى . ومع ذلك ما كاد يكلمنى حتى فهمت مع الأسف
أن لعبتى بالأمس فى إثارة مخاوفه وتحريضه على رجال
البوليس قد أدت إلى النتيجة التى كنت أريدها ولا أتوقعها ،
أستغفر الله ، أقصد أتوقعها ولا أريدها . كانت الدعوة إلى
القسم فى شأن مخالفة هيئة : إلقاء ماء قدر فى الطريق .

ومع ذلك كان الجاويش من الفظاظلة وقلة الأدب ، وداود افندى من الكبرياء وقلة الصبر ، أن وقعت الواقعة بينهما . ثم لم أستطع أن أفهم من داود افندى ما حصل بالضبط . بكل صعوبة و بعد تردد كبير ، اعترف أن الجاويش هزه هزة أوقعت طربوشه على الأرض أمام عدد كبير من الناس ، بينهم بعض من يعرفونه من أهالى الحى . حاولت أن أخفف حدته لكنه قاطعنى قائلاً :
— لازم أطلب رد شرفى

تطلعت إلى عينيه فوجدت فيهما لا أمارات الغضب بل أضواء سعادة كبيرة . أردت أن أقوم بواجبى وأصرفه عن التفكير الكثير فى أمر تافه ، لكننى عدلت سريعاً لأننى رأيت زورقه قد بدأ يتحرك من المستنقع ليخرج إلى البحر العالى بأمواجه . وانقطع حديثه المبتذل ، وأخذ يتكلم لأول مرة كلاماً لا يسير على قضيبين مرسومين . خفت عليه أن يعود إلى ركوده وابتذاله فهدتني الحيلة أن أقول له :

— رد شرفك وطالب بتعويض قرش صاغ واحد !
قلتها لأننى أعلم أن لهذه الجملة سحراً غريباً يخلب أذهان عامة الشعب والبعيدين عن المحاكم والقوانين . ولعل أكثر الحقائق

بريقاً وخبلاً للأذهان ما كان أساسها التناقض . فكيف ينشور من يغضب للإهانة ومع ذلك تنتهى ثورته بأن يثمن شرفه بقرش واحد ؟ وأى شرف هذا الذى يقدر بقرش ؟ أثرت هذه الجملة أثرها فى داود افندى، وزاد عزماً وإصراراً على الحصول على هذا القرش الواحد .

قضيت معه ليلتين نتشاور فى كيفية رفع الدعوى ، ولكن من المحامين يمكن أن توكل إليه القضية ويصون أمانتها . وقد وقع اختيارنا فى أول الأمر على أفضل المحامين ، ولكنه باتفاق الجميع ليس أعلمهم . أما أعلمهم فليس أقواهم سلطاناً ونفوذاً لدى رجال الحكم ، وأقواهم سلطاناً ونفوذاً ليس أكثرهم أمانة . وأخيراً اتفقنا على محام يسكن بالقرب منا ، على الأقل نستطيع أن نتردد عليه كل يوم بلا مشقة . اخترناه لا لفصاحته ولا لعلمه ولا لسلطانه بل لبخته . نعم لبخته ، فكل من اتصل به يؤكد أن سرّاً باتعاً يسنده فلا يتولى قضية إلا كسبها . أغلب زبائنه من عامة الشعب الصالحين .

عرضنا عليه الدعوى فأكد أنها رابحة وفى أقرب ميعاد ، وأن الجاويش سيجازى أشد جزاء ، وفوق ذلك يعاقب إدارياً .

وشرب داود أفندى من معسول كلامه ، فتخدرت أعصابه ودفع
مقدم الأتاعب جنبيين كالحلاوة .

وحددت الجلسة بعد ٤٠ يوماً .

وأخيراً ها هو القدر يتمخض بميعاد يفوز به داود أفندى ،
عمود تلغراف لولاه مasher راكب القطار بحركته ولا بسرعه .



دفعته دفعاً وسط الزحام — فهو الحمة — إلى قاعة الجلسة . وأنا
متلهف إلى أن أرى كيف يكون موقفه وتلغشه بين يدي القاضي
ومواجهته للجأوش خصمه ثم عدوه . و « انحسرننا » في مقعد
وجلسنا ننتظر دورنا . كنت أتمنى ألا يكون داود أفندى شخصاً
من دم ولحم ، بل شخصية وهمية وليدة سطور هذه القصة الخيالية ،
لأننى تأملت وأنا أراه ممتقع اللون مصفراً مرتجف اليدين . جلس
بجانبي كله عيون وآذان ونيس منه لسانه . أخذت أراقبه من
طرف عيني ، فوجدته كالقشة في بحر ينعكس فيها أقل اضطراب
لسطحه علواً وهبوطاً ومداً وجزراً . اشتمله جو الجلسة من رأسه

إلى أخص قدميه ، وشد عليه قبضته فلا يستطيع خلاصاً . كل ما يسمعه جديد ، غريب ، رنان ، أخاذ ، وأى سحر أقوى من سحر قاعة الجلسة ! صوت الجمهور بين همس ووجوم ، ومحاورات القاضى والمحامين والنيابة تنقله إلى عالم غير عالمه . ثم فجأة وبدون سبب ظاهر يخيم على الجميع صمت عجيب . فيشعر أنه يسقط من علو شاهق وسط الفضاء . ثم من جديد يعود التيار إلى أشده وإذا به محمول محلق يكاد يفقد وعيه : القفص ، والجنود ، نداء الحاجب ، تلك التعابير القضائية التى تنحنى لها الجباه إجلالاً وهى ليست إلا ألفاظاً !

لم يحضر المحامى عنا ، ونودى داود أفندى ونظرت دعواه ، ثم أجلت فى أقل من لمح البصر .

فدفعته مرة أخرى — كألهم الثقيل — وسط الزحام خارج الجلسة . وما كاد يتخطى بابها حتى بلغ ريقه لأول مرة . وماذا كان يظن وهو جالس طول عمره فوق الرصيف ؟ لم يثر فى اضطرابه أقل شفقة ، بل شعرت أنه من العدل أن يدفع ثمن تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التى نعيشها نحن المكثرون المتصبين عرقاً فى زحمة الحياة ، ولكنى ما كدت أضع ذراعى

في ذراعه لأقوده إلى القهوة المواجهة للمحكمة ، حتى رق قلبي وملاه عطف وحنان لم يعرفهما لأحد من قبل . وجلسنا وعلى جانبينا موائد اكتظت بوكلاء المحامين وسماسرتهم ، وكنت على صلة ببعضهم ، فدعوتهم لاجلوس معنا وعرفتهم بصاحبى ، ولما افترقنا على رأس الحارة لم يقل لى داود أفندى كهادته « نتقابل هنا » بل قال :

— قابلى بكرة على القهوة إياها

دفع داود أفندى جنهين آخرين للمحامى ليضمن حضوره في الجلسة القادمة ، كما أراضى الشهود بما وسعه كرمه .

وكنى قد غبت عنه بضعة أيام — ولعلها أسابيع — ولما عدت إليه وجدته على القهوة إياها محاطاً بأصدقائه ! ! من وكلاء المحامين ، وكلهم يحتسى القهوة والشاى ، ويدخن النارجيلة على حسابه . وإذا به يشترك معهم فى أحاديث مهنتهم وتجربى على لسانه نفس الألفاظ القضائية التى يتمشdqون بها ، بل ويدخل معهم إلى الجلسة فى بعض الأحيان . لما رأيت فى هذه الحال أردت أن أساعده وأوجد له ما يشغله ، فسمعت وعرفته بقريب لى معدم ، منعه فقره من رفع دعوى للمطالبة بملك واسع يظلمه فيه رجل

فعلت ؟ لا أذكر إلا أنني كنت دائماً تحت أمره كأنني عكازه .
كنت أجلس منه مجلس الولد من أبيه ، وأترك عملي لأكون في
خدمته ، ولا أذكر أنني خنته أو آذيتة أو أضلته .

ولكن هذه المحاولات لم تفلح في سند سياج كنت أقيمه
بكل جهدي طول الوقت لتتحصن وراءه نفسي ، ولو لتعيش في
دنيا من أوهامها في حمى من شك خفي بدأ يدب في قلبي . .
واذا بالسياج يرغمني وينهد ، وتبرز لي من ورائه تحملق في وجهي
كعيون البوم ، تهمة بشعة كالعدم ، قاسية كالقدر المترصد ،
راسخة كالأزل .

(كن طيباً ما أمكنك ، حذراً ما استطعت ، فلن تكون
يدك إلا أذى ولا قدمك إلا سوءاً !) . شعرت في جسمي ببرودة
الموت ، وعشت زمناً أرثي لحالي وأقول : يا لي من مسكين ،
ولكن سرعان ما أنفت هذه الضعة ، وأعدت نفسي للحياة ،
والحياة تقوى على أقوى الآلام ! ، بقولي لنفسى :

— هون عليك . . . أين فجيعتك ؟ هذه قصة خيالية ،

ولكنها ليست خرافة

وهكذا من أول وجدديد

كنا ثلاثة أيتام . . .

ها هو قد تزوج ، وها هو يقبل زوجته ، في كل قبلة يدعو الله أن يرزقه ولداً صالحاً تتجدد من بذرته شجرة أسرة ، ليست — وهنا العجب — بذات جاه أو ثراء ، وجاء يومه المرجو وسلمته القابلة لفة لها لين العجين ورائحته . وقالت :

— بنت . بنت . هذه نعمة من الله . . .

فسمّاها نعمات .

لم يفهم أن أغلب الرجا طمع ، وأن بعض الدعاء جحود وتدخل في الملكوت . . وعاد إلى سؤال ربه في صلاته ، وأطال تضرعه في ركوعه وسجوده .

وجاء يومه المرتقب ، بين الخشية والأمل ، وسلمته القابلة لفة تتلوى كالخشرة ، وقالت :

— بنت . بنت . هذه عطية من الله . . .

فسمّى بنته الثانية عطيات .

ذو بطش وسلطان . أردت أن أخدم الاثنين ، ويكفيني ثواب
المسعى . اتفق معه داود افندى على أن يقوم هو بالإتفاق على
الدعوى نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما . وأسرى إلى داود
افندى أنه سيرهن مصاغ زوجته ليصرف على الدعوى .

بعد يومين رأيتة يحمل دوسيهاً في يده سائراً مجدداً إلى
الحكمة



حدث بعد ذلك أننى نسيت جارى العزيز داود افندى
نسياناً تاماً ، لأننى كنت قد نجحت فى تحقيق أمنية طالما كتمتها
فى صدرى ، ولازمتنى الليالى تنفص على نومي وأكلى وشربى .
كنت أريد أن أتخلص من وسط عمال اليومية والتحق بطبقة
الأفندية أصحاب المرتبات الشهرية . فكم أبليت نعلى ، وأحفيت
قدمى ، وكم أرقى ماء وجهى وجف لسانى — ويغنى قولى هذا
عن التفاصيل — حتى نلت رغبتى وعينت حاجباً أمام باب قلم
فى وزارة . تخلصت من ماضى الكريه كله ، وتخلصت أيضاً من
الحارة المسدودة اللعينة ، وسكنت المنيرة

مضى على في وظيفتي زمن ، وذات يوم وأنا عائد من سوق الخضار وفي يدي قرطاس بلح آكل منه ، مررت على مطعم ، ولشد ما دهشت إذ وجدت فيه داود أفندي جالسا أمام طبق فول مدمس . داود أفندي «بجلمية» وجا كتة تجمع أصابعه بلقمة حبات الفول وتعجنها في الزيت ثم تحملها كتلة واحدة — كالكرة — إلى فمه ، ويتجشأ برائحة البصل الأخضر والفجل . أشهد الله أن قلبي انشرح وأنني سررت كل السرور لتحسن صحته ولتخلصه من أمراض معدته . وأشهد الله أنني شعرت بموجة شوق قوية تملأني ، فجريت نحوه ومددت له يدي مشتاقاً يكاد الفرح يقفز من كياني قفزاً .

— داود أفندي ؟ سالمات ، ازيك !

ولكنه ترك يدي ولم يأخذها ، ولما رفع إلى عيني لم تستقر نظرتي على وجهي حتى رأيتها تمتلئ بأقصى ما تستطيع العين أن تستوعبه من الكراهية والتأفف والبغض ، وإذا به يصرخ في وجهي ويشيح عني :

— روح . الله يخرب بيتك زي ما خربت بيتي !

تملكتني الحيرة فسمرت في مكاني : أي جرم أتيت ؟ وماذا

« نعمات » و « عطيات » لم تكن أسماء بمثل ما هي تلميح بأن الرضاعن اضطرار ، وأن انصياع اليوم مرتبط بالرجاء في تحقيق الوعد غداً . حرك الأب الأبر كل ما في قلبه من شغل الإيمان ، وتوجه إلى الله بكل ما قدر عليه من خشوع ، وكرر ابتهاله وتذله . فاستجيب في يوم دعاؤه . واستقر في بطن الأم سرّ الصبي الموعود .

حينئذ مات أبي ، وهو لا يعلم أنه فاز بأمنيته — أوفى جهده على الغاية ، وتحقق الغرض من وجوده ، وكان ثمن انطلاق السهم تمزق الوتر لشدود ، وإن سعادة الأفراد لا وزن لها في تسلسل الأجيال .

وهكذا ولدتُ يتيماً ، ومع ذلك لست بغريب عن أبي . كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال وتقع عيني على صورته الفوتوغرافية الشاحبة معلقة على الجدار ، أراه يتسم لي ويكاد يناديني . . .



ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب حتى ماتت أمي ، كأنها لم تقو على فراقنا إلا بعد أن اطمأنت على . . . سرت

وحيداً منفرداً خلف النعش ، أما شقيقتاي ، نعمات وعطيات فقد بقيتا تنوحان وتلطان الحدود وهما متدليتان من النوافذ . رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجوههما ونهودهما من أطراف العيون . في تلك اللحظة استفتت ، وأدركت أنني أصبحت رب أسرة . أية أسرة ! فتاتان جميلتان نعم جميلتان ، وإن لم تصح شهادتي ، ليس لهما غيري . قومت من ظهري المنحني ، وسرت رافع الرأس ، وتقبلت — على القبر — دون ثورة أو غضب وكره ، عبارات التشجيع والعزاء والتوصية بالصبر والرجولة



ثم مرت الأيام ، ودرج النسيان بأذياله على الماضي وأهله ، وإذا بي في صحبة شقيقتي من أهنأ الناس ثلاثتنا في مقبل الشباب ورونقه ، في مرحه ونزقه ، في جريه وقفزه ، في عطره ونضرتة ، تساو طليق ، لا تضغطه شيخوخة مولية ، ولا تأخذ بخناقه طفولة هاجمة . من حسن الحظ أننا لم نكون في سعة تكفي للانفاق على ثلاثتنا ، فقدّم الصبي وحجزت البناتان في الدار ، وكذلك نجاهما الله من الجامعة بأدائها وفلسفتها ، وسلم لهما عقل

غير ملتويضل في الفضاء ، وطبع غير متكلف . كل منهما نمت أنثى ، جسماً وعقلاً . لا يعكر حديثنا نقاش أو جدال . صحة لم يترك لى صفاؤها مطمعا . . فمن مثلى من الرجال تحوطه فتاتان — لا فتاة واحدة — بكل ما وسعهما من عناية وإخلاص ؟ لا تقل ملابسى هنداماً ولا أكلى جودة عن زملائى المتزوجين ، دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالكدر والهم والضيق الذى أتبينه على وجوههم كل صباح فى المكتب . . كانت نفسى قاعة وجسمى سعيدا . نعيش متلاصقين كصغار القطط وهن عى . حلقتنا كاملة : هذه نعمات لبسها دور الأم الحنون فلبسته . هى أكثرنا رزانة واتزاناً . فى يدها مصروف البيت وتدير خزينه . وبقيت عطيات « دلوعتنا الشعنونة » التى من أجلها نحصر — فى خفية منها — على تذكر أقل رغبة لها ترد عرضاً فى سياق حديثها ، وننتظر إلى أن تحين الفرصة ، فنجد أكبر اللذة فى تعب البحث عن طلبتها وفى التحايل على كتمان أمرها ، إلى أن تعثر عليها فى تمام مناسبتها ، فنضحك معها لدهشتها ، ونشاركها الفرح بهديتنا . . وفى بعض الأحيان أضع رأسى على ركة عطيات فتعبث بأصابعها الطويلة فى شعرى ، كأُم القرد تفلّ

رأسه وتناغيه . . بجانبنا نعمات تغمرنا بابتساماتها الحلوة وهي
تخطط لى بعض ملابسى الداخلية . لو تركنا لأنفسنا لعشنا سعداء
فى هناء يكمل بعضنا بعضاً ، ولكن كيف يتأتى ذلك وفى الناس
إخلاص ومحبة ورغبة فى مساعدة الغير ، وتطوع لعمل الخير
والتحريض عليه !!

بدأ أقاربى ومعارفى يهمسون لى : « متى تزوج أختيك ؟ لقد
آن الأوان ! » ثم فى مرة أخرى : « كيف تأمل أن تعثر لهما على
زوج صالح وأنت قابع فى داركم القديمة المختبئة بدرب الحجر من
وراء حارة التمساح لا تزور ولا تزار . . أم تراك معتمداً على
الخطابة ومقالها ؟ »

أخذت وأنا خائف أتطلع إلى عيون شقيقتى على غفلة منهما
وأسال نفسى :

— هل هذه عيون ظامئة جائعة ؟

خيّل إلى فى بعض الأحيان أن نظرتهما الناطقة تخرس
نجاة وتشرد فى الفضاء ، وأن تحت وشى هذه النظرات الجميلة
يختبئ قرم من الحزن والحرمان له عين البوم وأسنان الفأر وعناد

الثور ونزق الجدى . . أيها الشيطان الأسود ! مهما تراوغ فلن
نخفى علىّ بعد الآن !

سهرت الليل أفكر . وأنار الفجر ظلام الليل وبصيرتى .
فاستبانى لى الحقيقة على ضوء النهار ، جسداً عارماً قبيحاً عارياً
قوى العضلات . لا فائدة من مغالطة الطبيعة . ولا بد
من التضحية وتحمل الوحدة ، والصبر على مرارة التسليم
والانسحاب . . . رسمت لنفسى برنامجاً وصممت على تنفيذه
دون استشارة أحد حتى شقيقتى . لن أُلجأ إلى الأقارب ، فهم
— كما يقول المثل — عقارب ، ولا إلى المخاطبة ، فهى سمسار
بين عجزة ، أليست المشكلة أن الزوج الصالح لم يأت إلينا ؟ إذا
فلنبحث عنه ، ولنذهب إليه ، وفي موطنه ، ولو أدى الأمر إلى
اصطياده احتيالاً . ساعد الشبكة الماكرة بنفسى ، وألقيها
في طريقه بيدي . هذا صيد حلال . وأى شيء أعظم ثواباً عند الله
من تدبير زوج صالح لأعز الناس إلىّ ؟

بعت بعض الحلى ، وسحبت كل نقودى المودعة بصندوق
التوفير ، وأجرت شقة كالحق — ولكنها غالية علىّ ! —
فى جاردن سیتی ، واشترت لها بعض الأثاث من معارض

سليمان باشا . عن إذنك يا درب الحجر ! لقد ألقى الرق فأعْتَقْنَا
لوجه الله ! وأنت أيتها الصناديق والشكجيات ، وأنت أيتها
الشمعدانات والمرايا المذهبة ، وأنت أيتها الكنبات والمقاعد
المطعمة بالصدف ، منك إلى صالة المزاد خطوة مباركة ! وداعاً .
وداعاً . فنحن في دار كل مقام فيها قصير ، وكل صحبة إلى فراق .
أنتظرين أن أرثيك بدمعة ؟ من تلفت إلى الماضي لم تكفه
دموع الخنساء ! أتسأليننا البكاء ؟ بل أسألنا النسيان ، والنسيان
السريع .

ولما دخلت العمارة ، قام لنا بوابها : بربرى له وقار
القديسين وهيبة الأباطرة . ولما دلفت إلى المصعد بعد سلام قليلة
فرشت بالبساط وزينت بأصص الزهر ، ولما سمعت الوكيل يقول :
« هنا الأنثريه ، وهنا الأوفيس » اطمأن قلبي ، وقلت : قد
أحكمت الشبكة ، فلننتظر صابرين ، وعلى الله توكلنا . . .



عشنا غرباء زمناً ، ثم بدأنا نألف الحى وأصواته ، ووجوه
سكانه وعاداتهم . خرجت من الشقة ذات صباح فإذا بي أواجه
صاحب الشقة المقابلة خارجاً بدوره . واحتوانا المصعد معاً

لا أدري لماذا اطمأن قلبي إليه . ابتسامة مني ، وكنت أنا
البادى* ، وابتسامة منه ، وصلت الحديث بيننا ، هو موظف
كبير ، على المعاش . دعوت الله أن يكون له ابن صالح ، أو ابن
أنخ ، أو ابن أخت ، أو صديق ، أو معرفة ، وقلت : لعلمهم إذا
رأوا أخلاقنا وشرفنا ، وخبروا أحوالنا واستقامتنا ، تقدموا
بالخطبة . دعوته لزيارتنا ، فإذا به — لشدة دهشتي — يقبل
بسهولة . جاء وزوجته ، سيدة نصف ، حنت على أختي حنو الأم
الرؤوم ، دعتنا لشرب الشاي عندهم وقالت وهي تنصرف :
- عسى أن تكون ابنتي سنية قد عادت من الاسكندرية
فاقدمها إليكم .

حاولت ألا يظهر غمى على وجهي . كنت أنتظر أسماء رجال
لا نساء . وقلت في نفسي : « فلتكن زيارتنا الأولى هي الأخيرة ،
فلم أجيء هنا من أجل التزاور مع عائلة ليس لديها رجال » .
وذهبت في الموعد المضروب ، وأنا متخرج ضيق الصدر ...
وجاءت سنية ، أيها الناس ! لا تبخلوا على بكرمكم وطيبكم .
أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلي ، ولا تبتسموا إذا
وصفت لكم اضطرابي أمامها وحيرتي

ماذا أقول ؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتي ، ما قبله جاهلية معتمة ، وما بعده نور وإشراق . أحدثها وأسارقها النظر ، وإلا كيف تقوى عيناي العاشيتان على مواجهة هذا الجلال كله ؟ كنت بجانبها كالجرو المبتل يوضع في الشمس . . . ما كنت أدرك قبل رؤيتها أن اللباس من الفنون الجميلة . . كأن جسدها تمنى فكان ثوبها تحقيق أمنيتها ؛ وكأن الثوب نفسه اشتهى ، فكان هذا الجسد خليلته التي وجد لديها السكينة وطعم الحياة .. ثوب كم أبدى وكم أخفى ! استدار عليها يكاد يأسرها ، فإذا أسيرته طليقة تتحكم فيه . هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح الذيل بين الكتمان والإفصاح ، وحذاء تغنيك أناقته عن التساؤل عما يداريه . كل شعرة في رأسها تسابقت إليها واصطفت راضية بجانب أختها أو التفت معها أو من تحتها ، عالمة أنها تشارك في زينة ، سعيدة ناعمة بالدور الذي رسم لها . لو تهشم هذا الجسد وتفتت ألف كسرة لما خُذش جماله ، وضحكت فأسمعتني ضحكة تختصر العمر كله ، فيها سذاجة الطفولة ، ومرح الصبا ، ومرارة التجربة . . فم متهم وعيون بريئة . . لم تهتم بي كثيراً . وما وجهت لي غير نظرة أو نظرتين . ومع ذلك عند ما انصرفت —

وأنا أجزّ رجليّ جرّاً — كنت شاعراً بتعب من جسّ دقيق
تناول روحي وجسدي بأصابع توهم أنها تمسح وترت وهي
تندس وتنقب . . شعرت أنني عُرّيت ، وقُلّبت ظهراً لبطن ،
وخُصّت واختبرت ، قيسّت قامتي ، وسُبرت ، وُزّنت ، وكيّلتُ
عُرّكت وعُضضت بالأسنان ورُنّنت على الأرض . . خُرّكت
أوتار روحي واستمع لموسيقاها . . ثم استخرج من مخبئه كتابي
الدفين ، فروجعت في النور صفحاته وقرئت سطورَه كلمة كلمة .
كل هذا والعيون مترددة والشفاه مستفهمة . . ثم أصدرت حكماً
لن يكون له نقض أو إرام إلى آخر حياتها وحياتي .

أيها الناس ! أشفقوا علىّ مرة أخرى ولا تبتسموا من جديد
إذا قلت لكم إنني تعبت حقاً ، ولكني مع ذلك وجدت في هذا
التعب لذة كبرى . . . لم أخش حكمها . بل سرّني أنها تناولتني
بالفحص . كنت كالمريض لا يسعده أمل الشفاء بقدر ما يسعده
تقلبه بين يدي طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ . . انصرفت
وأنا لا أزال ألوك في فمي لذة مذاقها . . ولما دخلت شققتنا ،
حانت مني التفاتة إلى أختي فقلت في نفسي — والأسى يملؤها —
ما ينقصهما والله إلا أن تطول الصغيرة ، ويغطي الجورب السميكة

الركبة ، لتبدوا شابتين من الريف . . من غد إن شاء الله سأعني بتوجيههما إلى الاعتناء بهندامهما، وزيتهما وإلا كان فشل برنامجي المرسوم محققا .

ولكنى فى غدٍ نسيتُ كلَّ شىءٍ إلا سنية ! حاولت أن أجد مسوغاً لتكرار الزيارة فلم أوفق ، بل وجدت باب الشقة موصداً فى وجهى . ألا أنهم رأوا لعابى يسيل وأنا أهدق فى ابتهم خلصة فرثوا لحالى وأرادوا تجنبى التعلق بسراب ؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدّى زاد هياجى ، فإذا بى — وأنا المعروف باتزانى وأدبى — أفقد كل سيطرة على نفسى ، ورأيتنى لشدة دهشتى آتى بحركات وتصرفات لا تصدر إلا عن أطفال أو مجانين . حاولت أن أستعين برشوة الخدم فضحكوا منى . تصدّيت لها فى الطريق . ألقيت أمامها رسائل . تتبعتها كظلمة . كل هذا وهى لا تتكرم على بكلمة أو بابتسامة . أقسم لكم أننى لا أدرى كم من الزمن مرّ على وأنا فى هذه الحالة ، قد يكون أسبوعاً ، وقد يكون شهراً . وأخيراً ضاق ذرعى وأحسست أن العذاب لو طال لقصفتى الألم ودمرت قلبى وقضى على . هجمت عليها ذات يوم وهى

سائرة وأمسكتها من ذراعها . لمسة فيها رعشة الغيظ والأمل .
وقلت لها صارخاً :

— ماذا تظنين ؟ أجرى وراءك طول العمر ؟ أليس لى عمل
فى هذه الدنيا إلا أن أسير فى ركاب حضرتك ؟ العفو ! الآن
أريد كلمة واحدة : نعم أو لا .

فنظرت إلىّ وابتسمت

زرت معها معالم القاهرة فكأننى سائح يجوس خلال مدينة
مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل . . . كنت أتلو كاللبغاء
قصيدة النيل فشرحتها لى سنية بيتاً بيتاً ، وأفهمتنى جمال معانيها
ولفتاتها . فى حديقة الحيوان ، التى طالما زرتها فلم أر شيئاً ، كلمتنى
لأول مرة ، من وراء أعمدة السجن المؤبدة ، عيون صافية جميلة
حزينة ، وشكت إلىّ وحدتها وآلامها . الفضل لسنية فى الراحة
الكبرى التى شملت نفسى عند ما آخيتهم جميعاً . . . من زحف
منهم أو طار ، أو دبّ على أربع . . .

قالت لى ذات يوم :

— ما العمل إذا ؟ إن بابا يرفض بتاناً لأنك موظف صغير ،

ومرتبك قليل ، ولا يدري كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة
في جاردن سيتي . . .

ولما رأتني مطرق الرأس غماً ، أضافت تقول :

— ولكن مآماً في صفى . . .

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم ، على أن تذهب نعمات
وعطيات للإقامة مع إحدى خالاتى . . .

كلهم قالوا لى إننى ساعة « كتب الكتاب » كنت شارد
اللب ، ثم إذا بى فجأة أبتم ابتسامة خفيفة ، ظنوها من حرج
سؤال المأذون الصريح . لا يعلمون أننى — ولا أدري كيف —
انتبهت إذ ذاك فحسب ، إلى قسوة الفكاهة ، وهى تنطبق على ،
فى المثل القائل :

« راح يصطاد . . اصطادوه . . »

كُن . . .

. . . كان !

« ما معنى هذه الحياة ؟ »

ينخر هذا السؤال كالسوس في نفس حسين فرغلى كل ليلة وهو خارج من القهوة بعد أن كوموا مقاعدها وأطفأوا أنوارها . يخف إليها قبل الغروب فيجد زملاءه المدرسين قد اجتمعوا حول (الطاولة) ويدور اللعب بينهم — لا ينقطع لحظة واحدة — كالمعارك الحربية في غليانها وقمقتها ، يتساق اللاعبون كؤوساً مترعة من رحيق الفوز ومرارة الهزيمة ، فينهلون من وهما ويسكرون . . . حسين لا يلعب ، بل يكتفى بتتبع الحجارة والزهر بشغف كبير . يلتوى رأسه ذات اليمين وذات اليسار كمروس ميكانيكية انقلت ضابطها . وهكذا هو أيضاً في الحياة

يعيش على هامشها ، ويلوذ بالشاطئ ، خوفاً من تيارها . عواطفه موزعة تارة مع الغالب ، وتارة مع المغلوب . فالحايد المحروم من لذة المشاركة في الصراع يتسلى بمقدرته على الموازنة بالعدل والقسطاس . إذا دار الحديث فعن العمل والوظائف والدرجات ، حتى كأنهم الإبل يجترون بالليل ما أكلوه بالنهار . . . أى عقل شيطاني تفقت حياته عن اختراع هذه الطاولة ؟ هى لعبة ساذجة متشابهة متكررة ومع ذلك لا ينقطع سحرها كأنها الحشيش أو الأفيون . خرج حسين من الجو المسكوم المغمم بالأدخنة والضجيج وانطلق إلى الطريق ، فوقه سماء القاهرة تكاد الروح ترشفها من فرط صفائها ، تناثرت فيها نجوم لامعة وأخرى خائية ، لا يكاد النظر يستوعبها في مواقعها حتى تجد الأذن أن هذه النجوم المبعثرة مختلفات الألوان ينظمها نغم حلو جميل ، لكل لون منها نصيب في إيقاعه ، ولكنه نغم خاف تشعر به الأذن ولا تتبينه ، كأنما هى أيضاً عين ترى ولا تسمع .

وبدا حسين سيره إلى شبرا ، وهو حين يشعر بالليل يحجبه عن الأنظار ، يلذ له أن يحتضن أفكاره ، ويختلئ بها ، فيسرح ذهنه ، وتعود إليه ذكريات قديمة . عيناه تتكلمان تارة بالسرور

وتارة بالحزن . ويهتز رأسه مرة بالعجب ومرة بالحسرة ، وقد يتمتم باسمًا ، وقد تحدث شفتاه هذه « المصة » الضئيلة التي يعبر بها المصريون عن بعض ما في قلوبهم من توجع وعطف ورثاء . . آه ! إنه الليلة آسف على حياته نادم من جديد . أما يأتي اليوم الذي يتاح له فيه أن ينسى كيف ألقى بنفسه في مدرسة المعلمين وهو كاره لها ؟ وكيف نكص عن الزواج بجارته آمال ؟ تلك الفتاة التي خلبت لبه وسجرت له ، ورضي بالزواج من إحسان . . خشى الأولى لأنها مستبدة لعوب فاتنة ، وقنع بالثانية لا عن حب ، بل قياماً بواجب ، فهي ابنة عمه . . اطمان لها لأنها ربة بيت ، هادئة ، معتكفة . فماذا فعلت بنفسك يا حسين ؟ أدت ظهرك للنشوة والمتعة ، واللذة المتجددة ، والحياة المليئة بالعواطف . وآثرت حياة راكدة كالمستنقع . سرعان مامل إحسان ، وسرعان ما انقلبت هذه الفتاة الممشوقة القد إلى امرأة بدينة خشنة اليدين ، لم يرها مرة تستقبله عند عودته ، وقد سرّحت شعرها أو اعتنت بزينتها . تبدو له الآن حياته سلسلة من أخطاء وسوء حظ . إن كان في الحياة مهنة يمتقها أشد المقت فهي مهنة التدريس . هو عامل فرض عليه أن يبني الأساس ولا يتعدها ، ثم يجيء آخرون

يتممون البناء ويتمتعون به . . أى لذة فى عمل لا تتجسم أمامك
نتائجها فتمنح النفس جزاءها من الرضا والغبطة ! ؟

ما فائدة التوفر على تعهد الفرخ وتغذيته حتى إذا نما ريشه
أقلت من يدك وطار ؟ العالم كله يتحرك إلى الأمام ، والمدرس
ثابت فى مكانه ؟ وإن تلفت إلى الماضى يتلفت . . ما فائدة تعليم
هؤلاء الصبية وهو واثق بمجزه عن إسعادهم ؟ فالحياة مليئة
بالشراك والمصائد ، محفوفة بالمظالم والآلام والأحزان . سيخوضون
غمار معركة من أشد المعارك تطاحنًا وهولًا ، على حين أنه لم
يسلحهم إلا بقشور من العلوم النظرية ، وشقشقة لسان إن لم تكن
تضرفهى لا تنفع . كم كان يود أن يكون محامياً . إنه يحس فى
نفسه المقدرة على الفهم واستخلاص المبادئ وسلامة المنطق —
وهذه مواهب لانفيده فى صناعة التعليم ، ولكنها خليقة أن تتقدم
به إلى الصفوف الأولى لو أنه مارس الحمامة . ودّ حسين لو أنه
استطاع أن يدافع يوماً عن مظلوم أو يرد حقاً إلى صاحبه . .
ولكنه عاجز . فما يكرب نفسه أنه يرى المظالم تتزايد أمامه
وتتلاحق ، ولا أمل له فى أن يرى نهايتها ، أو يرى عالماً تسوده
العدالة . هذا تفسير ما فى نظريته من حزن عميق مختلط بغيظ

مكتوم . . ماذا يفعل ؟ إنه يقف طول النهار ينبح أمام تلاميذ كالقروود يلهون ويعبثون ، حتى يجف حلقه ويضطرب قلبه . هل نسى أن الطبيب قال له إن قلبك ضعيف يخشى عليه من كثرة الإجهاد ؟

وعندئذ تريت حسين في سيره ، ووضع يده على مكان قلبه وتأوه . . إنه يحس كأن إبرة تنغرز فيه . . لقد ساءت حالته الليلية ، إنه الإجهاد الذى يخشاه . . فمتى تأتى الاجازة ؟ . متى ؟ كان قد ترك الطريق الرئيسى وانعرج إلى درب ضيق ينتهى بالمزارع . . سكون شامل ، ومنازل نائمة . . حدثته نفسه :

— لو أستطيع أن أرتد القهقري عشر سنوات . . . عشر سنوات حسب . . ولو ضحيت من أجل ذلك بعشر سنوات مثلها من مستقبل عمرى . . سنة بسنة . .

لم يكد يسير بضع خطوات بعد هذا الخاطر حتى خيل إليه أنه يسمع زحيراً شديداً يتلاحق من ورائه . هل يجرى فى إثره أحد ؟ أجهد أذنيه فلم يسمع وقع أقدام . ومع ذلك استمر هذا الزحير يسرع إليه ويدنونه . طمأن نفسه يقول لها : لعله وهم

وخيال . فالليل عالم مجهول مليء بأصوات غريبة لا نتبينها . .
ثم سار قليلا . فإذا يدٌ تلمس كتفه ، والزحير يكاد يشق صماخ
أذنيه . . سمع حسين وقرأ أن شعر الرأس يقفُّ عند الذعر ، ولم
يكن يصدق . في تلك اللحظة أحس كأن يداً قاسية جمعت شعره
في قبضتها وشدته شداً قوياً يكاد يتمزق منه جلد رأسه . وشعر
حسين بأن اليد التي وقعت على كتفه لوح من الثلج ، فقد
جمد لها قلبه ، وإن يكن جبينه قد التهب لها وتصب عرقاً . .
التفت حسين مذعوراً ، فوجد وراءه رجلاً نحيفاً هو إلى القصر
أدنى منه إلى الطول — يرتدى ثوباً أسود كشياب التشريفات ،
من طراز يرجع إلى عهد غابر ، ذكر حسينا بصورة قديمة لأحد
جدوده . . والغريب أن هذا الثوب كان فضفاضاً كأنما فُصِّلَ
لرجل أطول منه وأشدَّ امتلاء . . فقد رأى حسين أمامه رقبة
نحيلة تائهة في بنيقة منشاة واسعة . . يريد ذقنه أن يعتمد على
حافتها فيشنقها فرط ارتفاعها . . لم ير له يدين ، وخيل إليه أن
الكمين فارغان ، ليس فيهما ذراعان . حدّق بنظره في تقاطيع
هذا الغريب ورأى — أو خيّل إليه أنه رأى — وجهاً إنسانياً
ذا عينين وأنف وأذنين . . ولكن عجباً ! لماذا لا تستقر نظرتـه

على هذا الوجه ؟ لم تنطبع له صورة في ذهنه ، كأنما وجهه هوة لولبية ، أو سراديب ملتوية ، أو صورة فوتوغرافية مهزوزة . . . أشاح حسين بوجهه من الرعب ، ومن تلك الرائحة المنتنة القاسية التي غمرت وجهه من فم هذا الغريب . وحين بدأ الرجل يكلمه إذا صوته صوت طفل وديع ، وإذا هذا الصوت الحنون وحده يراخى قبضة اليد التي كانت تجذب شعره فيعود إلى رقاده . . . وخامر قلبه شيء من الطمأنينة لم يدر سببها . قال له الرجل :

— لا مؤاخذه ياسى حسين . . خشيت أن تغير فكرك قبل أن أستطيع اللحاق بك . كنت مشغولاً جداً في القصر العيني وفي مستشفى الحميات . . فأنا — كما ترى — مجهد حقاً . ولى عمل شاق لا ينتهى . . سمعتك تتبرع بعشر سنوات من عمرك لقاء أن تعود القهقري عشر سنوات مثلها ، وأنا في ضيق علم الله — ومحتاج أشد الاحتياج إلى يوم ، فكيف بعشر سنوات مرة واحدة .

— لا شك أنك سعيد في حياتك . فلم أركبك أحداً يتعلق بالدنيا تعلقك بها . .

— لا . لا . لا أريدها لنفسى ، بل لغيرى .. دعنى أتكبر .
 نعم . عندى أب قارب الرحيل وقد قدر له أن يرى ابنه الوحيد
 الشاب يموت قبله . سأعطى الابن شيئاً من هبتك حتى أجنب
 أباه تجرع غصة الألم . وهذا شاب لو انتقل عن هذه الدنيا لحرم
 أولاده من ميراث جدّهم ، سأعطيه سنة حتى ينتهى أجل أبيه ..
 وهذا فتى أحب فتاة غاية الحب ، سيموت قبل الزفاف — وليس
 أشهى على من أن أمتعه بها ولو شهراً واحداً . فها أنت ذا ترى
 أن هبتك السخية تكفى لبعض هذه الأعمال الخيرية . . لهذا
 أسرعت إليك . .

خفت الأبحرة المنتنة شيئاً فشيئاً . واستطاع حسين أن يقارب
 وجه هذا الغريب . . بل بلغ به الاطمئنان أن ضحك في وجهه وقال :
 — مهلاً ! مهلاً ! هذه هبة كما قلت ، ولكنها — يا عزيزى
 الأستاذ — ليست بدون مقابل . . فهل أنت قادر على أن
 تردنى القهقرى عشر سنوات . ؟

انتبه حسين إلى أن جواً من الطيب والرائحة الذكية تسطع من
 مخاطبه . . وتمنى لو استطاع أن يقترب منه أو يضع ذراعه في
 ذراعه . . .

أجابه الرجل وهو يتسم :

— ألم تقرأ في القرآن الكريم « ادعوني أستجب لكم » ؟
 إننى عبد من عباد الله لا أعلم أن أحداً قد كلف بمهمة شاقة
 كهمتى .. وأنا مقبل على أدائها بإخلاص وبكل قوتى .. حرصاً
 على رضى مولاي .. وإني لحسن الظن بكرمه ومنه .. لم ألتس
 منه طلباً من قبل .. فلا أظن أنه يخيب رجائى لو سألته هذه
 المرة .. كن واثقاً أنتى أحقق لك ما ترجوه ..

ود حسين لو أنه تردد قليلاً أو سأله مهلة ليفكر من جديد ..
 ولكنه خجل من رقة محدثه، فوجد نفسه يقول له وهو ذاهل ..
 — لا مانع عندى ..

— يا لك من سخى شجاع ..
 وعندئذ أخرج حسين ساعته ونظر إليها فأوقفه الرجل قائلاً :
 — لا . لا . إننى لا أعرف حساب زمنكم هذا ...
 ثم تلفت إلى السماء ونظر إلى النجوم وقال :
 — سيكون بدء تنفيذ اتفاقنا فى تمام منتصف الليل .
 قال له حسين :
 — اتفقنا ...

أجابه الرجل :

— هذا القول لا يكفي . . إننى أريد منك أن تهبنى

السنوات العشر بالصيغة الشرعية . فقل معي :

« أهبك عشر سنوات من عمرى طائعاً مختاراً ، وأنا فى تمام

عقلى وإرادتى ، على أن أعود القهقرى عشر سنوات مثلها . . »

كرّر حسين وراءه الصيغة كلمة بكلمة . . فإذا بالرجل يربت

على كتفه ويقول :

— إنك أكبر المحسنين لو علمت . وليس أحد أولى منك

بأن يقام له تمثال . . ثم ابتعد عنه ، يتحرك جسده ، ولا يرى

حسين على أى قدمين يسير . .

واستمر حسين فى طريقه وهو ثمل لا يدرى هل يغتبط بفعلته

أم يندم عليها . همس لنفسه يقول : « إنك أسعد إنسان على

وجه الأرض ! ستقوم برحلة لم تتسن لأحد من قبلك »

وبخانة وقف حائراً وقال :

— ولكنى نسيت أن أسأله هل سأعود القهقرى عشر

سنوات محتفظاً بما فى من تجارب وأفكار ومن خبرة ومزاج . .

ليتنى أدخلت هذا الشرط فى اتفاقنا !

عشر سنوات إلى الراء ! سيغير حياته كلها .. سينعم بما حرم نفسه منه .. سيتجنب كل أخطائه . تألق وجهه وأسرع خطواته ، وأحس أن نشوة غريبة تهز عطفه .. فإذا به يقف من جديد وقد ساوره شيء من القلق :

— ليتنى سألته كم يبقى لى من العمر بعد تبرعى بعشر سنوات ؟

كان قد وصل إلى داره وفتح باب الشقة فإذا رائحة المرحاض تزكم أنفه مختلطة بعفونة قشور البصل المتخلف فى صفيحة القمامة . اعتاد حسين إذا عاد فى مثل هذه الساعة أن يجد شيئاً من الطعام على المائدة فيتناوله بارداً وهو صامت ، وزوجه نائمة لا تتحرك .. ولكنه فى هذه المرة لم يكذب يدخل حتى سمع صوت إحسان تنادى :

— من ؟ حسين ؟

وقامت إليه محجرة العينين ، مشعثة الشعر تقول :

— عجيباً ! ما كدت تدخل حتى طار النوم من عيني ، وانتبهت مذعورة لا أدري ماذا بى .

جلست معه على المائدة وسخنّت له طعامه ، وحدثته عن بعض

توافه يومها ، ومع ذلك كان كلامها ينزل برداً وسلاماً على قلبه ..
 هي زوجه ، وليس في حياتها أحد سواه . حبيسة داره ، حياتها
 كلها وقف عليه وعلى أولاده . كثيراً ما اشتكت وثارَت وضجت
 ولكنه لم يسمعها تؤله بكلمة تجرح قلبه .. حن لها حسين
 وضاحكها ، بل عرض عليها أن يسهر معها ويتسلوا بلعب
 الكونكان .. وهي لعبة الورق الوحيدة التي استطاع أن
 يعلمها لإحسان .

واستمر اللعب زمناً .. وتناول حسين ورقة يربح بها الدور ..
 فرفع يده بها مسروراً يقول :
 — كن ...

ولكنه لم يستطع أن يتمها (كونكان !) كان الليل
 قد انتصف

دخل عليه وكيل المكتب يقول :
 — السمسار منتظر يريد أجره

أطرق حسين برأسه ذليلاً . لقد انحدرت به الحال إلى أن
 أطلق بعض السماسرة يتصيدون له الزبائن من على القهاوى ..
 لم يبلغ إirاده في هذا الشهر عشرين جنيهاً ، وإنه والله ليخشى أن

يعود إلى داره ، فقد طالبتة آمال بثوب جديد لا يقدر عليه ..
 من كان يظن أن فتنة هذه الفتاة ستزول سريعاً ؟ عاشرها وتمتع
 بقربها ، ولكنه يشعر أنه ظل طول عمره غريباً عنها . لا يدري
 ما يجول برأسها .. يريد أن يخضعها فلا تخضع ، ويأمرها فتنفلت
 منه طليقة .. ثم كم تؤذيه ويؤذيها بهذه الكلمات القاسية الجارحة
 التي يتبادلانها كثيراً .. ثم — وهنا العجب — يضمهما الفراش
 فينسيان كل شيء في ضمة الجسد للجسد . وتعود العداوة والبغضاء
 في الصباح .. طبيعة حيوانية يتعamy الإنسان عنها ويتعالى ، وهو
 عاجز في قبضتها غريق في أحضانها .. ترى أين إحسان الآن ؟
 ألم يكن هو أولى بها — وهي ابنة عمه — من زوجها العamy
 الذي لا يحسن معاملتها ؟ ألم تكن راحتته وسعادته في الزواج منها ؟
 ولكنه تكبر وخان ، وجرى إلى آمال كالأحق ..

وسار حسين على مهل إلى داره .. الحمامة ؟ هي مهنة مليئة
 بالكذب والخداع . كم يتألم ضميره وهو يصرخ أمام القاضي بكلام
 يعلم في قرارة نفسه أنه كذب وتلفيق .. كل ذلك لقاء دراهم
 معدودة لا تسمن ولا تغني من جوع ..

آه ! آه ! إنه أضاع حياته . وما فائدة جهاده في الحمامة

والناس كالوحوش الضارية والذئاب المتفارسة ؟ إن اكتسى وجه
الظالم بغلالة سوداء بغیضة فما أجدر المظلوم الأنوف بأن يرفع
رأسه ويتجلى وجهه أبيض وضيئاً . . ولكن حسين يتطلع إلى
وجوه زبائنه فلا يتبين الظالم من المظلوم . . كل منهم تنطوى
نفسه على الغلّ والحقد . لا يكتفى الظالم بمجبروته ، بل يهبط به
جُبْنه إلى الدس والكيد والتلفيق . . وعمى المظلوم عن نبيل
المطالبة بحقه وثوابها وامتلات نفسه سُماً ، لا يرضيها استرداد
الحق ، بل الانتقام بأى ثمن من الخصم — ولو ظملاً ! كم كان
يود أن لو يشتغل بالتعليم ، لتكون براءة الطفولة الساذجة هى
مادة عمله ، وليساهم فى بناء جيل صالح ينشأ على الأخلاق الفاضلة
تبدأ به مصر حياة جديدة . . وهل هناك أنبل من وقفة المعلم
أمام صف من الصبيان يتطلعون بعيونهم المتعطشة إلى كل حركة
تصدر منه ، وكل كلمة تخرج من فمه ؟ هذا هو البناء الذى يرضى
النفس . وأى مهنة أخرى تهىء لصاحبها مثل هذه المتعة الروحية ؟
أما الآن فإنه يجاهد فى الحماة جهاداً زائفاً مُضِيعاً . . أحقاً أنه
يعمل لرد الحقوق إلى أصحابها ؟ إن صح هذا — وهو غير
صحيح — فما فائدة تعمير البناء والأساس فاسد مختل ؟ إنه يحس

في نفسه القدرة على الصبر والتؤدة والتبسيط ، وهذه صفات تؤخره
في المحاماة ولكنها خليقة أن تدفع به إلى الصفوف الأولى لو أنه
مارس التعليم .

قابلته آمال غاضبة تقول :

— لا أراك إلا والليل متقدم .. وما أظنك غبت في هذا
المكتب المبارك وهو أفرغ من فؤاد أم موسى .. أكبر الظن
أنك كنت مع صحبة السوء في لهو وعبت .
— كيف أرضيك يا آمال ؟ ألا ترينني متعباً ؟

وضع حسين يده على قلبه وتهد .
— إن الأزواج ليرجعون إلى البيت فيحدثون أزواجهم
ويلاطفونهن ويتسلون معهن ..

— وماذا تريدن ؟
لَوْتُ خرطومها وتركته
سار وراءها ذليلاً يقول :
— آمال ! تعالى . تعالى نلعب الكونكان معاً فأنا مهموم
أريد أن أتسلى ..

بلغ من ضعفه بين يديها أنه لا يجسر أن يمن عليها بما يفعله

لإرضائها .. فكل خدمة منه لها يصورها خدمة منها له ..
 واستمر اللعب زمناً ، وتناول حسين ورقة يربح بها الدور .
 فرفع يده بها مسروراً يقول :
 — كنّ ...

ولكنه لم يستطع أن يتمها « كونكان »
 انشق الجدار وخرج إليه منه رجل غريب ، ولكنه ليس
 بالغريب عنه . هو أقرب إلى القصر منه إلى الطول . مال
 بوجهه الذكيّ الرائحة على حسين يقول :
 — ياسى حسين ! هل أنت ذا كر ؟ لقد نفذت عهدى
 من الاتفاق . أليس كذلك ؟
 ابتسم له حسين ابتسامة ملؤها الاطمئنان والود والإخاء
 وقال :

— تم حديثك ولا تخف عني شيئاً . أكاد أفهم الآن كل
 ما كان غامضاً عليّ ...
 — نسيت أن أخبرك في ساعة اتفاقنا أنه لم يكن لك
 عندئذ من بقية العمر أكثر من تلك السنوات العشر التي
 تبرعت بها .. فهل أنت مستعد ؟

أسبل حسين جفنيه ، وخفق قلبه ، ومال عليه وجه سمح
منزعج يقول :

— حسين ! ما بك ؟

— مَنْ أنت ؟

— أنا إحسان ! ألا تعرفني ؟ لقد كنت أمامي منذ لحظة

سليما معافى . فماذا بك ؟ هل يؤلمك شيء ؟ رد على !
أأدعو الطبيب ؟

ولكنه كان قد فارق الحياة ، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة .
ووقفت أمامه إحسان ذاهلة لا تقوى على تفسير ما حدث
كيف حدث ! !

القديس لا يحار

تحلّل القديس من قيود الوطن والأهل والأصدقاء ، ورحل
يبلغ رسالته للناس ، يبين لهم باطل الدنيا ودنس المال ، ويدعوهم
إلى اللحاق به في هجرته إلى الله وحده ، لا يملك شيئاً
ولا يستقر بمكان .

وسار وراءه نفر من أتباعه . رجال جاوزوا سن الثورة
والاستهتار ، خشنو الجلد والملبس ، إذا نزلوا بلداً سهل إياؤهم
وإطعامهم . . . وتشديعهم ؛ ولو لم يتبعوه لظلوا أمام بيوتهم
يصطلون الشمس طول النهار . ولكن من هذا الشاب الجميل
الذي يسير في مؤخرة الموكب: مديد القامة عليه سمة النبيل، متد
الخطوة كأنه متبوع لا تابع . ما أصفى بياض يديه ورخاسة
أنامله ، يشد بها حافتي مسوحيه فكانها مشبك من الأحجار
الكريمة . . . من يكون ؟ ولماذا يسير مطرق الرأس ؟

إنه النبيل « ع » الابن الأصغر لسيد مقاطعة نائية ، تربى

في كنف العز وعاشر السعداء، ولم تقع عينه على يؤس . ولما مات الأب ، وورث الابن الأكبر لقبه وضياعه ، دعا أخاه المدلل وقال له :

— لا أطيق أن أصبح مميزاً عنك فأفرد بالخير كله ، ومقامك في قلب أبي الكريم كان فوق مقامي ، فإن شئت عشنا معاً لك مالى ، وإن شئت اقتسمنا التركة بالتساوى .

فأطرق النبيل «ع» برأسه ، ولم يجب . غادر القصر واعتكف في كوخ صغير أياماً طويلة خرج بعدها يعلن لمن حوله أن هاتفاً هتف به بين اليقظة والنام يدعوه أن التحق بالقديس . فلما تراهي الخبر للناس عدوها كبرى معجزاته ، وأكبروا في النبيل نزوله عن الغنى الواسع والعز العريض ، واختياره التكفف وسؤال الناس كسرة الخبز في سبيل الله .

طارت شهرة النبيل بين الناس وتزاحوا حول الموكب لا ليروا القديس ، فهم لا يجهلونه ، بل ليتطلّعوا إلى النبيل الوسيم كيف يبدو في ثياب الراهب . ينصرف الرجال عن الموكب وهم أَرْضَى نَفْساً وَأَهْنَأْ بَطْعَامَهُمْ وَشَرَابَهُمْ . أما الأمهات والجدات فكنن يَسْبِحنَ لله الذي سبقت إرادته ، فاختر هذا الوليد لحياة

كلها حرمان وقسوة ، وما كان أجدر شبابه بالتمتع واللعب . أما الفتيات فكن إذا رأين يده الناعمة الرخصة فوق المسوح الخشنة ، وتطلعن إلى وجه الشاب الذى أصبح مناله صعباً بل حراماً ، شعرن بقشعريرة تسرى في أجسادهن ، وركعن على الأرض يتمتمن بدعواتهن ، ولكن أحداً لم يفلح في أن يرى عينيه . . . لماذا هو مطرق ، ولماذا يسير في مؤخرة الموكب ، ولو شاء لكان في أول الصفوف ؟ ليس بينه وبين القديس إلا خطوة واحدة .

وفي يوم مر القديس وحاشيته على قصر منيف ، فسأل عن صاحبه فقيل له إنه لثرى عظيم لا هم له إلا اكتناز المال ، ولم يسع عنه في يوم أنه أحسن بدرهم . فعدل القديس عن مواصلة سيره ودخل القصر ليهدم منه للشيطان معقلاً ، ويظفر بتخليص أرواح ساكنيه . فوجد الثرى جالساً أمام مائدته ، تتكدس عليها الأطباق والأقداح ، عن يمينه زوجته ، وعن يساره ابنته ، وأمامه أولاده ، ومن حواليه أتباع وحشم يتطاعون لشفتيه لعلهما تنبسان بأمر .

امتلات الردهة بالأصوات ، ولكن الضجة لم تمنع النبيل — ولعل إطراره ساعده على إخماد السمع — عن أن ينتبه .

لضحكة رقيقة تحاول صاحبها كتمانها فلا تقوى . . . هل مبعثها سرور أو دهشة ؟ أم هي سخرية ؟ رفع رأسه فوجد ابنة الثرى تتطلع إليه بعيون ندية كلها أضواء . . . ورأى كيف تحتال حتى جاء مقعده إلى جوارها .

وتفجر القديس يلوم ، وكأن روحه ترمى بالشرر ، ثم يعظ ، فكأن قلبه يفيض بالغيث المنهمر ، وسحرت بلاغته الحاضرين فتقاربت الوجوه وتشابهت السحن ، فما يميز بين السادة والخدم .

واختلت الفتاة بالنبيل ، وجرى بينهما حديث خافت :

— لو أنك مررت علينا من قبل لخطت لك هذا المسح على قدك ، فإننى أشفق عليك وأنت تتعثر فى أذياله ، وتتيه ذراعاك فى أكامه ، فقل لى بالله عليك كيف تحتمله ؟

— لا يكربك الأمر ؛ فلست دالفاً إلى مرقص ، بل ساعياً إلى رب ينظر إلى القلوب لا إلى الأثواب .

— ويلى إذا ! لقد كنت أظن الرقص عبادة ؛ فما رقصت مرة إلا شعرت أنتى أقرب إلى الله منى فى أوقات الفراغ والسأم وهنا وجد الشاب نفسه أسير نظرة فاحصة ماكرة ، هازئة

كلها عطف وفهم ، فيها بريق عين النهم وهو جائع مقبل على أشهى أطعمة ، وأضواء لمحة الحبيبة إذا ما شفى الحبيب غلتها .

جرحه نفوذ النظرة إلى قلبه فانقبض ، ولكنه استراح لعلمه أنه لو شاء لكان سلطانه على الفتاة أقوى من سلطانها عليه .

فأجابها قاصداً هدايتها كأنه لم يغضب ولم يبال :

— وما بعد الرقص ؟ ألا تفكرين أن كل هذا سراب ،

وأن هناك موسيقى غير موسيقاكم ؟ اللهم إن كلى آذان لسماع أناشيد التسابيح بحمدك ، الصاعدة من الكون ، المدوية في

الفضاء ، فأسألك اللهم أن تجعل من قسمتي سماءها !

— إن الله قد أغدق نعماءه على الكون ولم يحرم منها إنساناً

له قلب وبصر ، فذهابك الآن تقرع باب الله دليل على أنك

عشت إلى اليوم غافلاً عن جماله . وهذا ماض سيقعد لك في

مستقبلك وإن جاهدت . خذها عني : إن الله لا يحب من

عباده السائل اللجوج ، ولا من يستعين للوصول إليه

بمسبحة طولها أمتار ... ثم مالت الفتاة على أذنه تقول :

— هلم اعترف أنك فهمت أنني أعلم لماذا ارتديت المسوح .

أنت طموح ، مبدؤك إما الكل وإما العدم . تركت الثروة لأنها

نصف ، والدنيا لأن كل لذة لك فيها تنقضى ، فإذا هي تقصر
 عن حد تتخيله ، وتسير في مؤخرة الصفوف لأنك لست على
 رأسها . ولو وقفت بين يدي الله لسألته : ما وراءك ؟ فتواضعك
 هو الكبرياء ، وزهدك هو غاية الطموح . إنني أعلم أنك نشأت
 يقيم الأم ، ولو عاشت لوجدت في عطفها ما يربط قلبك ، وما
 أشبهه الآن بصخرة في أعلى الجبل ... ومع ذلك لم يفقد الأمل
 فيك . لقد اخترتك لنفسى ، فابق ، انظر إلى ، وتمتع بجمالى .
 ستعلمك قوة حبي كيف تؤمن أولاً بإنسانيتك ليصح إيمانك
 بعدها بالله . إن لأبى جماعة من مهرة الموسيقيين إذا وقعوا على
 آلاتهم أرقصوا الجماد ، سأجعلهم يعزفون إذا أذن رئيسكم ، ولا
 أظنه يرفض ، وإلا لما كان قديساً — فماذا عليك لو خلعت المسوح
 وارتديت أبهى الأثواب ، فقمى إلى وانحنيت أمامى ، وتناولت
 يدي ، ودارت ذراعك حول وسطى ، وضممتنى إلى صدرك ، ورقصنا
 فتمثلت النعمة فى حركاتنا ، ثم انفلتُ عنك وأنا أخبر بك
 وأنت أدري بى ... وسترى أنه لا يزال هناك أمل .

انهد كل شيء من حوله . لو أنه أطاع وسواسه لهوت يده
 عليها يشدها من شعرها ، ويجرها على الأرض ، ولداسها بقدميه

أولمال عليها بغمورها بقبلاته ، ولكنه خطأ خطوة ليس عنها
نكوص ، ولو نكث لما صدقه من بعد ذلك أحد ، ولا صدق
هو نفسه . ولقد بقى فى أذنه من كلام الفتاة لفظ (الأمل) .
إنه سيظل حيث هو ، جاهدآ فى طريقه محتملاً ما لا تقوى على
احتماله الجبال ، آملاً أنه سيرى فى النهاية بارقة الرضا فى وجه ربه
الكريم ... ولكن الآن ! الآن ! الحياة كلها أمامه فى متناول
يده . آلاف الأصوات تناديه : أقبل ! اشرب ! إننى عطشى .
وكان القديس لا يزال يعظ ، ورويداً رويداً طأطأت
الرؤوس على الصدور ، وتصادت الآهات ، وانفجرت الدموع ،
وركم الجميع أمام القديس ، يلثم رداءه من لم يستطع الوصول إلى
يديه المرفوعتين إلى السماء

وترك الثرى مائدته ، وقف يقول للقديس بصوت يغالبه
البكاء :

— أسلمت قيادى إليك . فأنا منذ اليوم من أتباعك .
سأترك القصر وما فيه من متاع وما حوله من ضياع ، سأترك
مخازنى ، بعتيق شرابها ، والحقل بعجيج دوابه ، سأتبعك كظلك ،
ولن أكون وحدى ، بل سيتبعنى أيضاً كل هؤلاء : روجي

وأبنائى وزوجاتهم وبناتى وأزواجهن والأصهار والأتباع . أرنا الطريق ونحن فى أثرك .

لم يحرق القديس جواباً ، لم يتعقد جبينه ، فهو وضاء منير . ولم يزم شفتيه ، فابتسامته الجميلة هى هى ، ولكنه غائب عن الجمع ، نظرته نائمة ، لعله يستمع إلى وحى خفى يقول :

— لوتبعوك لحرب القصر وبارت الأرض ونفقت الدواب ، ومن أين لك إطعامهم وإيواءهم وإيجاد عمل لهذا الجيش العرمرم ؟ هل يتكففون الناس مثلك ؟ والقديس من الواصلين الذين يستند إيمانهم على صخر لا يتزعزع ، لا يعرف الشك ولا الريبة والتهكم . لم يثر فى قرارة نفسه ولم يقل (إذاً ما حكمة رسالتى ؟ وما قيمة المبدأ الذى خرجت أبشر به ؟ وكيف يكون الكيل كيلين والصاع صاعين ؟ وإن كان ما يصح لى هو الحق فلا بد من أنه يصح للناس أجمعين) .

لم ينقص إيمان القديس ذرة ، ولم يهتز لحظة ، فكيف يكون قديساً إذا بدت له المسائل كما تبدو لبقية الناس متناقضة مضطربة ، مضحكة مبكية ؟ لهؤلاء القديسين نظرة تشمل الكون وتفهم الأسرار ، فما يبدو عجيباً هو ذات الحكمة ، وما يبدو

متناقضاً هو عين الاتساق . قال القديس بصوت كأنه يخرج من كهف عميق :

— يا بني ! احمد الله أن هداك أنت ومن معك للحق ...
على يدى ! إن الطريق الذى تريد أن تسلكه وعر ، لا يقوى عليه إلا القديسون أمثالى . فامكث مكانك وأقبل على عملك ، واسكن إلى زوجك ، وداعب أولادك وبناتك ، وأشرف على شؤون خدمك وحشمك ، وحقوقك وضياعك ، وتمتع بأكلك وشربك ، على أن تعدنى أن تفعل الخير وتذكر الله . تمثله لنفسك فى كل لحظة حتى تعلم أن كل ما حولك زائل وأنتك ملاق ربك فمحاسبك حساباً لا يضيع فيه مثقال ذرة من خير أو شر .

بدا الوجوم على وجه النبيل وكأنه لم يفهم شيئاً . فاستمر القديس يقول :

— لا تحزن . إنك ستمكث فى القصر — فى نظرك — ولكنك ستكون مع ذلك من أتباعى . ما قيمة التمسك بالذيل واقتفاء الخطوة ، فى حين أن الروح متبلد والذهن غائب ؟ ستبغنى بروحك . بإيمانك . . . ولك على أننى لن أنساك فى

يوم ، فلن يغيب عنك ندائى بل سأحمل شخصك فى قرار قلبي .
 سأنشئ لك ولأمثالك طريقة خاصة بكم تلتحقون بها ، فتربطنى وإياكم .
 وعادت الردهة إلى هرجها ومرجها ودبت فيها روح البهجة ،
 ودارت الأطباق والأكواب ، وسكن الثرى إلى زوجه ، وداعب
 أولاده وبناته ، ونادى كلبه الأمين فألقى تحت قدميه .

والتفت النبيل (ع) فوجد الفتاة عن يمينه ، والقديس يهم
 بالانصراف عن يساره ... ولكن هاتفاً هتف به فإذا هو يتمتم
 لنفسه : نعم ! لا تياس من رحمة الله

فجمع أطراف مسوحه ، وجرى إلى الجمع واتخذ مكانه بينهم ،
 لا فى آخر الصفوف هذه المرة ، بل وراء القديس كأنه يلوذ به .
 وتحرك الجمع يرددون وراء القديس قوله :

« اتركوا الباطل الزائل واتبعونى ! »

ووقفت الفتاة صامتة برهة ، ثم همست تقول :

— ياله من غر مسكين لم يفهم الوحي . لما نادته رحمة الله

أن ابق ، فإذا به يولى عنها وينصرف !

ثم ضربت الأرض بقدمها وصفقت تقول :

— موسيقى ! رقص !

يبنى ويبنك

كم من مرة قطعت فيها هذا الطريق معك ، ذراعك في
ذراعي ، فما شعرت أطويل طريقنا أم قصير ، أفي يومنا المسير
أم في غدٍ لم يأت بعد ، أم هو في ماضٍ من العمر قد ولى وفات .
كان الطريق هو الذي يقبل إلى ، يأخذ بيدي ، ويريني
اتصاله بالأفق ، بالسماء ، بالأفلاك .. على جانبيه دور هادئة
الماوى كصدور الحاضنات ، ويمر بنا أناس كل منهم شعاع من
نور الله ..

أما الآن ، بعد اختفائك ، فهذا الطريق بعينه أقطعه وحدي
فلا ينتهي ، المسير سخرة ، والأفق قيد ، والسماء غطاء ،
والنجوم ترمق الأرض شزراً .. الدور سجون ، والناس أطياف
ذاهلة لا تدري ما القدر ، وإن شككت كفرت

مارأيت عاملا في ترام أو في متجراً أو في مقهى إلا سلم عليك

سلام الترحيب والإعزاز ، فالجياة المتدفقة من روحك تمسح
عن النفوس جميعها صداً الألم والحزن ، وتنفض عن الوجوه
رماد البؤس والشقاء .

وأنت ، لا تستقر نظرتك على وجه واحد ولا تترث . .
تهبين وما تقدرين أى مال تنثرين . أفأنت عمياء كأعمى
الغريزة وأبيك الحظ ؟ . . .

السينما مزدحمة وأنت لا تعبثين بأحد . المشهد مؤثر ، والناس
يبكون ، وأنت ضاحكة :

— أأبكي من خيال ؟

يا أختاه ! لا بكيت أيضاً ، ما عشت ، من حقيقة . .
ومن يدري ! لعلك قد انصرفت عنى يوم اختفائك
عابثة تقولين :

— أأبكي من خيال ؟

نقلت إلى أن خالتك ، أو تلك التى تزعمين أنها خالتك ،
حدثتك عنى بالأمس وقد تركتكما فى العربة :

— أهذا الذى تذكرين ؟ إنه ساذج . هو فى يدك
 كالعجين . فلتهنأى به .
 ما آلمنى هذا الوصف ، بل رحبت به ورضيت ، صدقت
 نظرتك فى أم لم تصدق : سيّان عندى . إن الحب الذى يغمر
 قلبى هو كل ما أسألك عليه من أجر . فلا يهمنى تصفيق النظارة
 أو صفيحهم

ما أظنك أحببت أحداً أو شيئاً حُبَّكَ الثوب الجديد . هو
 حب صادر من قلبك ، عائد إليه ، فأنت به قريرة العين ،
 سعيدة ، ناجية من سيطرة الغير . .
 على لسانى دعاء :
 — ألا فليذلك الحب يوماً ...
 ولكن قلبى يهمس :
 — خيب الله مُنَاكَ

ماذا تظنين ؟ أحسبت يوم اختفائك أننى سأوى إلى عشنا
 فأمكت أترقب ميعادك ، فإذا مضى تشاغلْتُ بكتاب أقرأه

ولا أفهم منه شيئاً ، ونظرت إلى الساعة مرة وتثاءبت أخرى ،
حتى إذا ما تنبهت إلى مشاغلي التي أهملتها من أجلك ، هبطت
الدرج سريعاً ، وانطلقت إلى الدروب والمسالك ، واختلطت
بالناس . . أو يدور بخلدك أننى عندئذ أنسى كل شيء ؟ هيهات
لخيالك ، مهما سكر وعربد ، أن يدرك ما فعلتُ . . لبثت أنتظرك
ساعة ثم ليلة ، ثم يوماً ويومين ، أسبوعاً وأُسبوعين ، شهراً
وشهوراً . . وما زلت أنتظرك . وأنا أعلم أنك لن تعودى .
ولكنى أخشى إذا أنا لم أنتظرك وشاء القدر أن تعودى أو أن
ألقاك فى الطريق ، أخشى حينئذ أن تكون لهفتى على رؤيتك
قد طواها النسيان وأطفأ أوارها . ولست أريد إلا أن أقابلك
مشبوب العاطفة ، واله القلب ، ظامئ العين . فأنت لو تعلمين
عزيزة لى ، وهيهات لى أن أبذل قدرك عندى . . فلا تحمل
الأم طول الدهر خوفاً من إساءتك فى لحظة عابرة قد تأتى
وقد لا تأتى



اشتريت لها الحذاء فلبسته بعض اليوم ثم خلعتة :
— حذرنى الطبيب من الكعوب العالية .

وألقته عنها مَيِّتًا في عنفوان الصبا . منعنى كرهى لهذا الخداء
السخيف الذى همَّ بأذاها من أن آسف على موته السريع

أيتها الفتاة الغريرة ! كيف لم يقو مكرك على ستر سذاجتك
الكامنة في نظرتك . أتكونين ساذجة قد تعلمت المكر ، أم
ماكرة قد تعلمت السذاجة ؟ اكذبي ما شئت وامكرى ، فليس
أحب إلى قلبى من كذبك ومكرك . . .

هذا الأناث اشتريته على عجل من أجل عشنا . ما نقبت ولا
اخترت . ظل طول رفقتنا أنانياً أبكم . لم تحيه نظرة فاحصة
من عينيك . ما سمعتك راضية عنه أو ساخطة عليه . وكنتُ
إذا انتظرتك وفات — كالعادة — ميعادك ، أنطلع إلى قطعه
واحدة واحدة ، فما حنَّ يوماً وأسعفت تساؤلى بجواب . حتى
إذا أشرقت شمسك تلاشى كالظلام من حياتى .

ولكن ها قد حلَّ يومك — ككل ظالم — أيها الأناني
الأبكم . الآن بعد اختفائها نطقت ، بل ما عدت تطيق
السكوت . لا ينقطع تساؤلك : « أين هي ؟ » « متى تعود ؟ »

يكاد ينشق - شبك عيوناً جائعة تتلف على نبرة من شفتي ،
وتكاد تتمزق منك أذرع تشبث بي وتستجديني الجواب .

أيها الثرثار ! لـج في الكلام ما شئت . فأنا اليوم - ولم
العجب ؟ - كما كنت أنت بالأمس - أبكم ! ولكن لا عليك
أيها الوفي الأمين . كيف لجريح أن يعث بجريح ؟ ليس من
رباط بين القلوب أقوى من العاهة المشتركة . أنا أيضاً أيها
الرفيق الكريم لا أدري أين هي ولا متى تعود . فضم بلواك إلى
بلواي لعلها بهذا عليك تهون . .

أيها الرفيق اللقيط ! أنت عندى الآن أعز من أطهر الأبناء .

أيها الفتاة الغريرة .. لم يكن لى أمل فيك ، ولا بنيت من
حبك أكوأخا ولا قصوراً . لا يركن إلى الأمل إلا من قصر
يومه فاختلص من غده .

أما أنا فقد كان حاضري يفيض بى ويفيض عنى .
كان ! فكل ذلك قد ولى وفات . وكأن الذى أغدق على
بالأمس - غير مسئول - يتقاضانى اليوم ثمن الإسراف
بالحرمان .

وكم من محروم مظلوم . . .

بعد أيام قلائل من لقائنا كنت قد قصصت عليك ماضى
وكل حادثة ساقنتى إلى . أما أنت فقد مر الحول وبعض الحول
ولست أدري عنك شيئاً . ما هممت بسؤالك ، ولا شكاً قلبي من
ظماً . فليس الغموض الذى يحوطك إلا انبهار العين من نورك
الوهاج . وهل لك ماض ؟ إنك لست بنت الحوادث ، بل
أنت أم الحياة ! . . .

خاللتك عاما وبعض عام ، فما سمعتك تنطقين بفكرة أو تبدين
رأياً . . ما تلوثت شفتاك بالحكمة ، ولا نضح لسانك بالفلسفة . .
ما دلست الحوادث عليك معانى موهومة مزيفة ليهتز لها رأسك
استعباراً . . ما سمعتك تذكرين ولا تأملين . لا ماضى لك
ولا مستقبل ، بل كنت فى كل لحظة كمال الحياة لتلك اللحظة .
تتفجر منك الحياة كمنابع الأنهار ، لا يهيمها أتبدد النهر أم اغتاله
مستنقع . أتبخر هباءً أم سار لغايته إلى البحر البعيد . تثب الحياة
الغضة من عينيك ، تسيل على صدرك ، تتدفق من على جلدك

وأنت لا تشعرين . وكنت أنهل من معينها الصافي فأجد فيه
 نشوة لم أجدتها من عتيق الخمر . . . وأنت — لشقائي —
 لا تشعرين . فليس أكبر الألم ألا يشعر الحبيب بألمك ، بل ألا
 يشعر بسعادتك . . .

ما من مرة احتضنتك بين ذراعي إلا شعرت بقسوة الموت
 وظلمه . هذا الجسد الغض المتألق ، تفجر منه الحياة ، يصبح
 يوماً أبخرة عفنة وعظاماً نخرة . .

ألبستها العاملة أمام المرأة كل ما لديها من معاطف واحداً بعد
 واحد ، فإذا بجمالها يطفئ على التغيير والتبديل ، وتبدو لها في كل
 معطف فتنة جديدة . . .
 وددت لو استطعت أن أشتريها لك جميعاً . .

عادت إلى المعطف الأزرق ، وجربته مرة أخرى ، ودار
 جسدها أمام المرأة ، وجهها ساكن ونظراتها ثابتة على توأمها . .
 « رفقا بجيئك يا فتاتي ! » ثم خلعتة ، وعادت إلى بقية المعاطف

فلبستها كلها واحداً بعد واحد ، ثم أشارت إلى المعطف الأزرق
وقالت متراخية :

— هذا !

وهكذا تشاء الصدف ألا يتعلق ذوقك إلا بأغلاها !
— تريثي ! إذا لم يعجبك هذا المعطف فغيره كثير . تعالني
أريك متاجر أخرى .

لمسته بطرف إصبعها وقالت :

— أقضى به هذا الموسم ، وفي العام القادم أشتري غيره . .
كم وددت لو أنك قلت : « تشتري لى أنت غيره . . »
دعوت الله أن يقسم لى شراءه ، كما يدعو السقيم ربه أن يمن
عليه بالشفاء . .

كنت معك فى أحضان الرذيلة من أتقى الناس ، لا تذوق
شفتاي الحمر ، وما بينى وبين الله عامر . .
أما الآن ، بعد اختفائك ، فقد سكنت إلى الحمر ، لا لأنساك
بل لأقوى على جر الماضى إلى الحاضر ، لأعيش معك من
جديد . فأنا اليوم سكير صالح مطرود من رحمة الله . . .



لقيتكَ ذات يوم ، على غير ميعاد ، فى منعطف طريق .
 أغلب الظن أنك تسكنين قريباً منه ، وأنتِ خرجتِ عجلى لأمر .
 كنتِ عاطلة من الزينة ، غير مسرحة الشعر ، مهملة الملابس ، على
 كتفيكِ معطف لعله معطف أخيك ، وفى يدكِ حقيبة لعلها حقيبة
 خالتكِ . كنتِ لا تشعرين بنظراتي تعانقكِ من بعيد وأنا واقف
 أتردد بين لذة اللقاء وراحة التشفى . . هذه التى أسرتنى مضاعفة
 بين الناس لا يشعر بها أحد ، ملكة نزعَت عن عرشها ! هذا هو
 الطير المحلق يهبط على الأرض . أين جمال جناحيه وهو صافٍ
 فى السماء ، من مهزلة اضطرابه وهو يحجل ويقفز ؟ !
 ولما ذهبتِ إلى عشنا ، كنتِ أهدأ نفساً . حسبتهى أشد قوة
 على التخلص من سيطرتكِ ، ولكنكِ ما كدتِ تجتازين الباب
 حتى هتف قلبى : « هى والله ؟ ! »

كونى ما شئتِ ، ليمسخ الإهمال صورتكِ ، ليقس الضنا على
 محياكِ ، بل فليشوهِك الزمن الذى لا يرحم ، فأنْتِ أنتِ عندى .
 لأنْتِ آخر علمى وذوقى ومنتهى تجربتى . لقد كلمتِ بك حياتى
 وتم وجودى ، ولن أزيد بعدك شيئاً . حتى خيانتكِ لم يزد

بها علمى . هى تجربة أصبحت بعدها أكثر فهما لألم الخلق ،
وأشد سخرية من ألم الخلق . فهذا العطف الذى أبذله باليمين ،
تسترده سخرיתי باليسار . .



ولكن صبراً ! سيأتى اليوم الذى أنساك فيه . . حين يشيب
شعرى وتتساقط أسناني ، وتنطفئ عيني . حين يحتضني الفراش
فلا أقوى على التخلص من ضمته ، وأستسلم إليه مضطراً وأستريح .
حين أفلح أخيراً فى جرّ رجلى جراً لأبحث عن الشمس ، محدقاً
فى الناس ، وهم حولي ، تحديق المشنوق فى جلاديه . حين لا أستطيع
أن أرى شيئاً ، إذ يكون شبح الموت واقفاً أمامي أعدأنفاسه قبل
أن يعد هو أنفاسي . .

عندئذ سأنساك ! فليس أقوى من ذكراك عندي سوى
الموت . . .

ولكن ألا من يخبرني عندئذ كيف أمسيت ؟ وكيف مرت
عليك السنون ؟ . . .



هذه المحلوفات المنتشرة في الطرق ، هاربة من الدور تارة ،
هاربة إليها تارة أخرى . .

هذه الخثالة المتوسدة أرصفة المسالك . .

هؤلاء الباعة الجوالون في الزحام، بعيدين بأنفسهم عن الزحام
كالأرواح الضالة . .

كلهم ينطق بالقدم والدوام . ما حلول جيل منهم محل جيل
إلا كالشعبان يبذل جلدًا بجلد . . .

هكذا كنت أراهم .. أما بعدك فهم لدى الآن سيّاح يهبظون
بلدًا غريبًا . وجوههم بلهاء في جهلها ، نظرتهم تائهة لا تستقر ،
ولا تقوى أرواحهم المهاجرة أن تقول عن شيء : « هذا لي ! »
كل هذا لأنهم لم يسعدوا يا حبيبتي برؤيتك



عندما كنت أخرج معك في هدأة الليل ، كنت أشعر أننا
وحدنا في هذا العالم ! تناسنا الأفلاك والنجوم ، نسينا الليل ،
نسينا الناس .

وكان في نسيانها أكبر اللذة والسعادة .

أما اليوم ، بعد اختفائك ، فأسير والأفلاك والنجوم لم تتغير ،

والليل مغمض الطرف ، والناس هم هم . . .
 - فأجد في نسيانها أكبر الألم والعذاب . . .

ألف ألف فتاة مثلك عاشت فلمعت عيناها لمعان عينيك ،
 وافترت شفتاها عن مثل بارق ثغرك ، ثم طواهن الموت واندثرن
 في التراب . قبلة واحدة منك لى كانت تكفى لبعث هؤلاء الموتى
 الجائعات للحب بعد طول الرقاد . . فى قبلك لهيب ألف ألف
 ثغر ظامى .. أصبحت من أجلك أحب الموتى مثل حبي للأحياء ..

وأغرب ما أعجب له أننى لا أسأل عن سبب اختفائك . وهل
 يستطيع من عاش معك معدوم المنطق أن يعود فيتفهم العلل
 والأسباب ؟ سأسأل عن السبب حينما يهدأ قلبي . . إذا فلن
 أسأل ما حييت . وإذا مات العالم معتزاً بعلمه — فسأمت أنا
 معتزاً بجهلى . . .

قرأت بحثاً كتبه شيخ من شيوخ الدين يعتمد فيه على

الناطق العقلى ليثبت أن الإنسان مسير لا مخير . . فما اقتنعت
وما فهمت أوله من آخره . .

وتحيين أنت ، أيتها الفتاة الغريرة ، فتكفينى نظرة واحدة
من عينيك لأومن بالقدر والجبر . . لأننى ألغيت معك منطقى
وعقلى ، وقنعت بالروح فأمنت .

لجأت إلى الكتب المقدسة الطاهرة أستنبها : أيجيب الرحمن
دعوة العاصي ؟ فإنى أريد إذا ما وقفت بين يدى الديان أن أسأله ،
قبل أن يغفر لى ذنوبى ، أن يغفر لك ذنبك . .

العالم مضطرب ، والمدافع تقصف ، والدماء تسيل . الدور
تخربت ، والنساء ترملت ، والأرض أمنا العجوز فى الهييب ...
فماذا يكون شقائى باختفائك مع كل هذه الآلام ؟ . . أأصرخ :
ليخرب العالم ما دمت أنا غير سعيد ؟ لا ، وألف مرة لا ، بل
أدعو الله أن يعيد السلام حتى تنعمى يا حبيبتي أنى كنت
شبابك فى ظلاله ، وإن حرمنى هذا السلام لذتى الأخيرة . . .
لنة التشفى !

في المساء أقول : الفرار الفرار يا نفس . عبثاً حاولتِ
 الاستقرار والاطمئنان للخلو والعدم . من يلومك بعد أن ذقت
 معها طعم الوجود ؟ عودي . ارجعي أيتها النفس الفطيم إلى
 ظلامك وأوهامك ، فلست والله تدرين بعد اليوم إذ تطوف بك
 أشباح السعادة : أهي ذكريات الماضي أم آمال المستقبل ؟
 وفي الصباح أنتفض على بسمه الفجر ونشوة الطير — أسمعها
 تقول : « أنت يا هذا الذي سعدت بالحب . قم ! إنما العيد
 لك ! » مهلاً أيها الطير ! إنك تعيش ملء لحظتك لاحظتك ،
 بيد أن نفسي تتوقع عند الصباح قدوم المساء . . .

ودعت القاهرة عهد السلام ، فأطفأت أنوارها ، وفاضت كالقندح
 أثرته يد مرتعشة لسكير زائع البصر . . واكتظت طرقاتهم
 بأغراب ومهاجرين ونازحين من ملل ونحل شتى ، فلم يبق موضع
 لقدم في ترام أو في سيارة ، أو في ملهى . رأيت الكثيرين في هذا
 الزحام كالأسرى ، على وجوههم علامات التأفف والكرب
 والاختناق ، يودون الخلاص . فلا شيء يضيق به الإنسان

ضيقه بقرب أخيه الإنسان .. أما أنتِ فكنتِ في الزحام كالسمكة
 في الماء ، تطبق عليكِ الجموع ثم تنكشف وتطبق وأنتِ ناعمة
 البال قريرة العين ، بل كنتِ أجمل ما تكونين وأنتِ رافعة
 الرأس في الزحام ، تتلاطم أمواج البشر حول منارتك . ما سمعتكِ
 تستكين أو تتأقنين .. ما زاد تلفتكِ ولا ضجرتِ نظرتكِ ؛
 بل كنتِ مرحّةً كأنكِ في مهرجان .. وكما رأيتكِ سعيدة
 بالحياة رأيت الحياة سعيدة بك ..

يوم أن خرجنا من متجر الأزياء قبيل الغروب وأنتِ
 تقولين :

— ... أعجبني الثوب لولا أزراره ..

وهنا دوت صفارة الإنذار ، وهاج الخلق وماج . هل تذكرين
 كيف رأينا لابسى الجلابيب والحفاة هازئين ، والموسرين
 هاربين ؟! رأينا شبانا في شرخ الصبا غير عابئين ، وشيوخا
 على حافة القبر زایلهم كساحهم فهم يجرّون إلى الخبايا ، نشطين ..
 وقفتِ مكانك وتلفتِ يمنة ويسرة ثم قلت :

— أنا خائفة !

أخذتك إلى أول بناء لقيناه ، وجلسنا مع بوابه النوبى كأن
 ثلاثتنا من أسرة واحدة لم تفترق طول الحياة ..
 ولما ضجت السماء بأزيز الطائرات ، واشتعلت بلهيب المدافع
 وانفجار القنابل .. ولما اهتزت النوافذ والأبواب ، وعلا الصراخ ،
 امتقع لونك ، وعرقت يدك ، وطال صمتك ..
 ثم هتفت الصفارة بالأمان ، فقممت واقفة ، ووضعت ذراعك
 فى ذراعى وخرجنا ، وكان أول حديثك :
 — ... لأن طرف الزرّ الأوسط على الكم اليمين شبه
 مخدوش ...

تنقلت بعدك بين نساء كثيرات . لم أزد مع كل منهن عن
 لقاء واحد ، وفيهن من هى أجمل منك وأشدّ سحراً ، ثم أفر ولا
 أعود . لماذا ؟ للحسرة ؟ لا . فأنا أعلم أن اختفائك قد أذابك
 فى يَمِّ الحياة وهيئات أن تعودى ، ولو عدت اعدت غير ما كنت ..
 اللغيرة . هل تخشى روحى أن تكون كل امرأة جديدة بين ذراعى
 رجلاً جديداً أنت إذ ذاك بين ذراعيه . قد يكون هذا ، ولكن
 هل لى أن أصارحك أننى أفرّاضاً بنفسى على غيرك ؟ فهذا

الذى تحسبينه فى " انحاء هو غاية الكبرياء والاعتزاز .. هو الحب !

أحببت قبلك اثنتين : واحدة ثم أخرى . كم أقسمت صادقاً بين أيديهما أحرّ الإيمان على الوفاء والإخلاص حتى الموت . . ثم افترقنا . . وهذأت . . ولم أعد أذكر شيئاً . . غير أنى كنت فى غيبوبة النشوة أنادى الأولى بين ذراعى الثانية ، وكم فاجأتُ شفقتى تتممان باسم دفين وأنت بين ذراعى لا تشعرين . . فهل الذى جرى عليهما سيجرى عليك أنت أيضاً ؟ إن الزمن يلح على بالإخلاص فأعصيه ، والمنطق يسخر منى فأسخر منه ، والحياة تتشبث بتلايبي فأتملص من قبضتها وأفر . ولكن هل أقوى على مغالبة كل هؤلاء الخصوم مجتمعين ؟ سأناك ! سأناك ! ولكن هيهات لى أن أنسى أننى نسيته . . .

الآن بعد اختفائك ، أقول وأنا وَّجل : هل أحببتها لأنها ذكرتني بمن مضى ؟ أفى نظرتك أم فى صوتك أم فى سذاجتك لقيت من خلت أننى دفنته ؟ ولكن لا ! ما فات مات . مات إلى الأبد . ولم نخدع أنفسنا ؟ الذكرى إنما تخرج من القبر هيكلًا

نخراً بالياً في لون أغبر وكفن حائل، أجوف قد نزع منه الكلام.
يوميء فلا نفهم، ونشير فلا يفطن. عَدَمٌ متحجر، قائم ونحن
نضطرب وندور فلا نعرف إقباله من إدباره. إن بصيصاً من نور
خافت ينبعث من حى، كاسف جميع الشموس الغاربة! الآن
أومن أنتى أحبت مَنْ سبقك لأنهما كانتا تشبهانك أنت...

يا رب! يا أرحم الراحمين، وسعت رحمتك حنق المهزومين،
ونورة المحرومين وقد تاهوا في ملكوتك. ما أجهلهم وإن كانوا
مؤمنين!

ووسعت رحمتك من أضلته بصيرته، فجحد، وأنكر، وكفر
كفر الأعمى بالنور...

ووسعت رحمتك من ركبته الجهل، وساقته الحماقة فتعالى وأبى
السجود آنفاً من أن يرسف فيما توهم من قيود.

بل وسعت رحمتك من أغدقت عليه من نعمائك، فجذف
وتمرد...

لا أقول لك مثل قولهم: لماذا خلقت الشر؟ لماذا برأت
الرزيلة؟ ولكنى أسألك: يا إلهى لماذا جعلت الحق على النفس

ثقيلاً ، والباطل هيناً . لماذا خلقت الفضيلة مملة والرذيلة فاتنة ؟
لماذا خلقت الحب روحاً هائمة لا تخضع لعرف أو لقانون : طيراً
لا يحط إلا ليحوّم ؟ يفزّعه الأمن والسلم والدوام ، والحياة عنده
وجد ووله وهيام .

لا يستقر ولا يهدأ ، لا تزيده العبرة إلا استهتاراً ،
ولا النصيحة إلا عناداً . . لم جعلت السعادة سراباً ، والوفاء محالاً ،
والنيات متعقدة ، والنسيان عدّاء ؟

أنت مطلع على الضمائر والقلوب ، فاعف اللهم ممن ثاقلت
قدماه في الطريق السوى فلم يقو على اللحاق بالقافلة تنفّص
عرقاً ومللاً . . . وانحرف إلى البیداء ضالاً ينجى النجوم ، وكل
زاده نجواه لنفسه :

— ما ظنك بالله العلىّ القدير ، الرؤوف الكريم !

أجوس بعدك خلال القاهرة فأعود من أحيائها الأوربية
بقلب فاتر كليلاً ، وأثر بين المرّ والخلو ، كفقير يترد عن زيارة
ابنه الغنى العاق وإن عزّ على قلب أبيه . . . يضيع مني شبحك

في الأوبرا وجروبي ، وبين شبرد والكونتننتال ، فإذا قادتنى
 قدماى إلى سيدنا الحسين ، ومررت تحت البوابات الهرمة ،
 ووقفت أمام الجوامع العتيقة ، هصر الشوق قلبى هصرا ..

فأنت عندى هذا التاريخ ...

وإذا ما فاض بى الحنين إليك أبكر إلى قصر النيل مترقباً
 جموع الفلاحات قادمات من الريف ، على رؤوسهن سلال الخضر ،
 ثيابهن سود ، على أرجلهن الطين ، معتدلات القوام ، فى وجوههن
 المجهدة عيون صابرة . لا ينقطع تدافعهن ، ولا تنقضى ثرثرتهن ..
 عندئذ ألقاك ... فأنت عندى هذا الوطن ...

ويغلبنى الوله على أمرى يوم « طلوع القرافة » ، حين أتتبع بنظرى
 عربات الفلاحين البطيئة تحمل الأسرة كلها رجالا ونساء ،
 شيوخاً وأطفالا ، أمامهم « السحارة » المنحدرة من قبور الفراعنة ،
 يهجرون مدينة الأحياء ليستقبلوا العيد فى مدينة الأموات .

فأنت عندى هذا العيد !



الآن أذكر ، والآن فهمت ..

فى صباح اليوم الذى اختفيت فيه ، كنت أجول فى خان الخليلي ،

فنادتني من سجنها الزجاجي "مسبحة جميلة وأشارت إلى أن خذني معك .

تناولتها بورد ، وانعقدت بيننا منذ اللمسة الأولى أوامر صداقة وثقت أنها ستدوم ، تساقط حباتها كقطرات الماء على الغدير ، حديثها الخافت إلى : عن الألفة بين القلوب في عالم الوحدة ، عن الطمانينة في اللقاء المقسوم وإن طال الغياب ، عن الوجل من الفراق المحتموم رغم اللقاء . .

عدت بها إلى عشنا ، فلم أكد أدخله حتى انقطع من حيث لا أدري خيطها وتناثرت حباتها . أهو نذير أم شيطان يغار ؟ جثوت على الأرض ، وجمعت حباتها ، وعددتها فإذا تنقص حبة . دسست يدي ، ونبشت بأظفري تحت المقاعد والسجاد ، ولكن عبثاً ! غزنت وأسفت .

قد تسألين : أكل هذا العناء من أجل حبة واحدة صغيرة ، وفي يدك منها عشرات ؟

فأجيبك : هكذا مسبحتي ! لا يحيا جمالها إلا بهذه الحبة الواحدة الصغيرة . . التائهة !

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٩٦ جنيهاً.
 - الدول العربية واتحاد البريد العربى ١٢٠ دولارًا أمريكيًا.
 - الدول الأجنبية ١٣٠ دولارًا أمريكيًا.
- تسدد قيمة الاشتراكات مقدّمًا نقدًا أو بشيكات.
- بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة